

الدين و العلم

بحث موضوعي يتناول أسباب الالحاد من خلال الواقع
ثم يتناول علاجها بأسلوب ومنطق العصر الحديث ، ثم يقيم
بنفس الأسلوب الأدلة على وجود الله

الدكتور محمد حسن هينو

١٤٠٣ هـ

١٩٨٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وبعد :-

فاننا نريد من خلال هذه الموضوعات التي سنطرحها أن نبين الصلة الوثيقة بين الدين والعلم ، في هذا العصر الذي انبهر الناس فيه بزخرف الحضارة المادية المعاصرة ، وما تحمله في طياتها من فلسفات ، ومعتقدات ، وعلوم ، وفنون ، حتى وصل الأمر بهم لدرجة الايمان بكل ما توحيه هذه الحضارة التي فتنوا بها ، والتي تقوم على أساس التجربة والمشاهدة ، فلا يجوز الايمان بشيء لم يجرب أو لم يشاهد .

إلا أن الافتتان بهذه الحضارة ، والعصبية التي حملها العقل المعاصر ، عند كثير من المتتقنين والمفكرين _ جعل كثيراً من أبناء العصر يغضون الطرف عن هذه الحقيقة التي قامت عليها هذه الحضارة _ فيما يزعمون _ ويقتنعون بمجرد التقليد الأعمى ، لكل ما يأتي به الشرق أو الغرب ، مادام ممهوراً بخاتم التقدم ، ولو كان تقدماً في طريق الرذيلة ، أو خاتم التحلل ، ولو كان تحللاً من الفضيلة .

لقد سمعوا بعض قادة الفكر المادي المعاصر من فلاسفة العلوم يرددون أن الدين يتنافى مع العلم أو أن العقل الحديث لا يتلاءم مع الايمان بالله والغيب ما وراء الطبيعة والمادة ، أو أن هذا العصر عصر الألحاد وأبطال الأديان .

لقد سمعوا بعض قادة الفكر يرددون هذه الكلمات ، ورأوا بعض الدوائر العلمية تتبناها ، وأجهزة الدعاية والإعلام تنشرها وتعممها ، فرددوها معهم ، وآمنوا بها ، دون أن يعرفوا الأسباب التي دفعت أولئك الناس إلى ترديدها ،

ودون أن يعرفوا الحقائق العلمية التي شاهدها أو جربوها حتى توصلوا إلى تلك
الشعارات .

ونحن لا نريد أن نمنع الناس من اقتفاء أثر الحضارة المعاصرة ، كما لا نريد
أن نمنعهم من الإطلاع على آثار فلاسفة العلوم وأفكارهم ، والاستفادة من
خيراتهم وتجاربهم .

ولكننا نريد أن نقول : ليس كل ما قاله أولئك المفكرون حقا ، بل فيه الحق
والباطل ، فما كان فيه من حق قبلناه ، بل نقلناه وتداولناه واستأنسنا به ، كما فعل
أسلافنا حينما اطلعوا على ثقافة الأمم التي كانت قبلهم ، وما كان فيه من باطل
دفعناه وأعرضنا عنه .

فإننا نبحث عن الحق ، وهو الذي يحكم على كل فكر ويدعمه ، وليس
الفكر هو الذي يحكم الحق ويسيره .

ولذلك يجب علينا قبل أن نتقص أي فكر أن ننظر فيه ونختبره ، ومن ثم
نحكم عليه فأما أن نقبله ، وأما أن نرده .

لقد زعم كثير من فلاسفة العلوم أن هذا العصر عصر الالحاد ، وأن العقل
الحديث يتنافى مع فكرة الألوهية والدين ، خلافا للعقل القديم الذي كان يؤمن
بالله ليعلل به كثيرا من مظاهر هذا الكون ، لجهله بعقلها وقوانينها ، أما وقد
عرفت القوانين والعلل ، فلم تعد هناك حاجة للقول بوجود الله ، وصار الالحاد أمرا
ضروريا للعقل الحديث .

هذه دعواهم . . ونحن لا نرد هذه الدعوى ، وانما نناقشها ، ونطالب
بإقامة الدليل عليها ، وإلا أقمنا الدليل على بطلانها .

ونحن نؤمن بنقيض ما قالوه تماما ، إذ نؤمن بأن هذا العصر عصر الإيمان ،

وعصر إظهار العظمة الالهية ، وعصر البرهان الساطع على صدق الدين وضرورته .

وإنما آمننا بهذا من خلال القوانين العلمية التي عرفناها ، والمشاهدات التي توصلنا إليها وأدركناها ، وهي نفس المبادئ التي دعتهم إلى الكفر و الالحاد .
إلا أننا سنطالب أيضا بقبول مناقشة هذا الإيمان ، ومن ثم سنطالب بإقامة الدليل عليه . فأما أن نثبتته وأما أن نعترف ببطلانه .

ونحن حينما نريد أن نستدل على صدق دعوانا ، وبطلان دعواهم ، لا يمكننا أن نستدل بقول الله في القرآن ، أو قول رسول صلى الله عليه وسلم في الحديث ، لأن الخصم لا يؤمن لا بقرآن ولا بحديث . ولا بالوهمية ولا برسالة ولا بدين . .

ولذلك يجب علينا أن نرد عليه بالأسلوب العلمي الذي يفهمه ويتقنه ، من خلال المشاهدات و الأبحاث والتجارب . .

ولقد ساهم القرآن الكريم أكبر مساهمة في هذا المضمار إذ لفت نظرنا إلى كيفية محاجة المخاصمين بما يتناسب مع عقولهم وتصوراتهم ، كما ورد في كثير من القصص القرآني في محاورات الأنبياء مع أقوامهم . .

ولذلك سيكون بحثنا على النحو التالي :

- ١- يجب علينا أن نبين له خطأ دعواه في أن الالحاد والخروج عن الدين وليدا العقل الحديث ، بل هما قديمان قدم الإنسان والعقل ، وليست لهما أية علاقة بالمكتشفات العلمية والحديثة .
- ٢- يجب علينا أن نعرف الأسباب التي دفعت الإنسان إلى إنكار الدين و الالحاد .
- ٣- نبين له الخطأ في ملاحظاته العلمية التي أبداها من أجل أبطال الدين .
- ٤- نبين له أن المكتشفات العلمية قد وجدت يوما ما ولم تتعارض مع الدين ، وأنها اليوم كذلك .

٥- نذكر أدلته التي استدل بها على أبطال الدين واعتمد عليه ، ومن ثم نردها .

٦- نبين له أننا عندما نستدل على وجود الله إنما نستعمل نفس أسلوبه وأدلته ، وأن استدلالنا بها أوضح من استدلاله وأثبت وأتم .

٧- نذكر أدلتنا على وجود الله ، من الكون والحياة وغيرهما .

٨- سنتكلم عن حقيقة الألوهية عندنا نحن المسلمين .

٩- نبين معنى قولنا " الله يوصف ولا يدرك " مما أوقع الخصم في سوء الفهم

الدكتور محمد حسن هيتو

٢٠ شعبان ١٤٠٢ هـ

الكويت الأربعاء :

١٦/٦/١٩٨٢م

الرد على دعوى الملاحدة في أن الالحاد

وليد العقل الحديث

لقد ذكرنا في المقدمة أن قادة الفكر الالحادي زعموا أن الالحاد وليد العقل الحديث ، وأن الإيمان بالله ، والأديان إنما هو من مخلفات العقل القديم الذي أعجزته الحيلة في الوقوف على الأسباب والعلل للظواهر الكونية ، ولذلك وجد نفسه مضطرا للإيمان بالله ، ليعل ما يراه من الظواهر بالقدرة الالهية ، أما العقل الحديث فليس بحاجة لهذا الإيمان ، إذ تمكن من أن يضع يده على الأسباب والعلل الحقيقية لتلك المظاهر الكونية .

فهل صدق الفكر الالحادي في أن الالحاد وليد العقل الحديث ؟

هذا ما نريد أن نتكلم عنه في هذه الحلقة فنقول :

إن نظرة سريعة خاطفة إلى تاريخ الإنسان على الأرض في مجابهة الرسل والأنبياء والأديان لكفيله بأن تدلنا دلالة قاطعة على بطلان هذه الدعوى وكذبها .

وإن دعوى كهذه ، في أعراف جميع العقول البشرية ، غير قابلة لأن تسمع علاوة عن أن تحتاج لإقامة الدليل على بطلانها .

إن قضية الكفر والإيمان قديمة قدم الإنسان والدين على ظهر الأرض .

فقد عودي جميع الرسل والأنبياء الذين أرسلهم الله إلى البشر ، يدعونهم إلى الإيمان بالله ، واتباع شرعه الذي شرعه لهم .

وكان كل من جحد من المتقدمين يعلل جحوده بتفاهت فكرة الألوهية ، والتمسك بمظاهر الكون المادية ، والإعتماد عليها ، وتعليلها بما يتناسب مع

مدرجاته وتصوراته في عصره .
فهذا نبي الله نوح ، يدعو ابنه إلى الإيمان بالله ، والركوب معه في
السفينة ، ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ
﴿هود/٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ
رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿هود/٤٣﴾

لقد كفر ابن نوح بدعوة أبيه للإيمان بالله ، كم كفر قومه ، ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ
إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وعلل ابن نوح عدم إيمانه بالله والاعتماد عليه ، بأن الجبل يمنع من
الماء ، ويعصم منه ، فلا داعي للقول بأن الله هو الذي يعصم وينجي .

أنني لا أستطيع أن أجد أي فارق بين هذا القول ، وقول جوليان هكسلي إذ
يقول : " إذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية ، فلا ينبغي أن ننسبها إلى
أسباب فوق الطبيعة " .

" وإذا كان قوس قزح مظهر لانكسار أشعة الشمس على المطر ، فماذا
يدعونا إلى القول بأنها آية الله في السماء "

لا فرق أبدا بين هذين القولين إلا ما يكون من التصورات التي تختلف
باختلاف العصر والبيئة بين ابن نوح وهكسلي . .

وهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام يعاني ما عاناه نبي الله نوح وغيره من
الأنبياء ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ . ﴿البقرة / ٢٥٨ .

يروى أنه أمر باحضار سجينين ، ثم أمر بضرب عنق أحدهما ، وعفى عن الآخر ، وقال : اني أحيت أحدهما وأمت الآخر ، فلا داعي للقول بأن الله يحي ويميت .. وهذا نبي الله موسى يلاقي من العنت مع فرعون ما لاقاه اسلافه من الأنبياء من أممهم .

وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يلاقي نفس الأمر من قومه ، اذا أتى بمعجزة قالوا :إنها السحر ذا أتاهم بحديث أو قصة عمن قبلهم ، قالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا ، واذا دعاهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، سخروا منه وأعرضوا عنه .

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ ﴿الجاثية/ ٢٤﴾

﴿ هِيَآتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ ﴿ ٣٦ ﴾ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ

بِمُبْعُوثِينَ﴾ ﴿المؤمنون/ ٣٧﴾

كلمات واحده ، وأسلوب واحد ، يتناقله الملاحده فيما بينهم ، ينقله الصغير عن الكبير ، والجيل اللاحق عن الجيل السابق ، كأنما يوصي به بعضهم بعضا .

ولذلك قال تعالى متعجبا من إتفاقهم عليه : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ

رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ ﴿ ٥٢ ﴾ اتَّوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿

﴿الذاريات/ ٥٣﴾

إني لا أجد أي فارق بين قول الدهريين الذي ذكره الله في كتابه الكريم
﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ الجاثية / ٢٤ وبين قول الألحاد المعاصر " لا
إله والكون مادة "

إن قضية الألحاد والإيمان قضية قديمة قدم الدين والإنسان ، وليست وليده
العصر الحديث ، وما العقل الحديث إلا حلقة في سلسلة العقول الإنسانية يراوده ما
راودها قديما في هذه القضية المهمة الأساسية في حياة الإنسان .

وبهذا يتبين لنا كذب وتمويه فلاسفة الألحاد المعاصرين في أن الألحاد وليد
العقل الحديث ، ووليد المكتشفات والقوانين العلمية التي وضع الإنسان المعاصر
يده عليها .

الأسباب التي أدت الى الإلحاد

١ - موقف الكنيسة :

لقد ذكرت في المقدمة أن يجب علينا قبل أن نخوض في أقوال الملاحدة المعاصرين وأدلتهم - يجب علينا أن نعرف الأسباب التي دفعت أولئك الناس الى الإلحاد ، لنضع يدنا على العلة حتى نتمكن من تحديد العلاج .
وأني أستطيع أن أحدد الأسباب بسببين رئيسيين أعتقد أنهما من أهم العوامل التي أدت الى الإلحاد والثورة على الدين .
السبب الأول : وهو سبب يعم جميع أوساط الناس في أوروبا وغيرها من البلاد التي خضعت لسلطان الكنيسة ، وهو طغيان الكنيسة باسم الدين .
والسبب الثاني : وهو سبب خاص ببعض المفكرين والمخترعين ، والمكتشفين وغيرهم من المستغلين ، ألا وهو معرفة الأسباب والعلل التي فسرت لهم كثيرا من المظاهر الكونية ، مما جعلهم يستغنون عن عزو هذه المظاهر الى الله وقدرته .
أما السبب الأول ، وهو في نظري السبب الأهم ، لأنه يعم جميع طبقات المجتمع ، مما جعل الناس يقبلون الفكر الالحادي ، أو على الأقل لا يشفقون على الدين حينما توجه اليه السهام ويطعن به ، ذلك هو الطغيان الذي ما رسته الكنيسة باسم الدين ، مما جعل كل انسان ينفر منه ويعمل للخلاص من قيوده وتعاليمه .
فقد منحت الكنيسة لنفسها حقا الهيا في عمل ما تريد ، بلا منازع أو مدافع ، ومنحت البابا العصمة ، لأنه وكيل المسيح على الأرض .

وقسمت المجتمع الى طبقات ، وأعطت رجال الدين سلطة عامة مطلقة ، وفرضت الضرائب ، وأستبدت بالبشر ن وأوجبت الإعتراف بالخطيئة كل عام أمام القس والراهب من أجل المغفرة .

مما كشف أسرار الناس ، وهتك حرمتهم ، وكان هذا الإعتراف طريقا لتدخل الكنيسة في كل شأن من شئون الإنسان العامة والخاصة ، بل طريقا لمآربها الخسيسة الدنيئة ، فباعَت الجنة وأصدرت صكوك الغفران ، وصارت هناك تسعيرة معروفة لمسح كل خطيئة ، فكان ثمن الغفران من خطيئة الزنا ١٥٠ دوقا ، وثمان الغفران لمن قتل ابنة ٤٠٠ دوقا ، وثمان الغفران لمن قتل ابنتين ٨٠٠ دوقا وهكذا . . . حتى أصبحت الكنيسة شركة ضخمة لبيع الخلاص بالجملة والتجزئة . . . بل صارت مناصب الكنيسة تباع وتشترى ، لأنها أقرب طريق للإثراء والإستبداد ، والوصول الى لمآرب ، وتحقيق الشهوات والأهواء .

وقد لخص اسكندر السادس أخلاق البلاط البابوي ، وكان قد عرف وسائله أكثر من ثلاثين عاما في ظل البابا أنوسنت الثامن الذي اشترى بابويته بالمال أيضا . . . لخص أخلاق البلاط البابوي بقوله : ((ان الله لا يريد أن يموت الخاطيء ، بل أن يحيى ويدفع ثمن خطيئته)) .

ويضاف الى ذلك العقيدة الفاسدة التي تبنتها الكنيسة بعد تحريف الدين ، ألا وهي أن المسيح ابن الله ، وأنه قتل وصلب واهين ، وهو على هذه الصفة الالهية ، أو تصويرهم الله بصورة الانسان ، وأنه حل في عيسى بن مريم ، الى غير ذلك من لأباطيل التي لم ولن يؤمن بها العقل لا القديم ولا الحديث ، وقد لخص الدكتور وولتر اوسكار لندبرج ^(١) هذا السبب بقوله :

((في جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون

(١) عالم الفسيولوجي والكيمياء الحيوية ، استاذ فسيولوجيا الكيمياء والكيمياء الحيوية الزراعية بجامعة مينسوتا .

منذ طفولتهم في اله هو على صورة الانسان ، بدلا من الاعتقاد بأن الانسان قد خلق خليفة الله على الأرض .

وعندما تنمو العقول بعد ذلك ، وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية ، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر ، لا يمكن أن تتسجم مع اسلوبهم في التفكير ، أو مع أي منطق مقبول .

وأخيرا عندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة ، وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي ، نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كليا ، وعندما يصلون الى هذه المرحلة ، يظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين ، وما ترتب عليها من نتائج نفسية ، لا يحبون العودة الى التفكير في هذه الموضوعات ، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع ، وتدور حول وجود الله (١).

وحرمت الكنيسة النظريات العلمية والبحث العلمي ، وفرضت أشد أنواع العقاب على كل من يذكر كلمة نظرية ، أو قانوني علمي ، مما يخالف عقائد الكنيسة ، وتصوراتها ، وكان هذا العقاب بعد الطرد من الرحمة أما القتل بالمقصلة ، وأما الاحراق بالنار .

ولقد بلغ عدد الذين قتلوا بالمقصلة ، أو احرقوا بالنار زيادة عن ثلاثمائة وخمسين الفا من العلماء والمفكرين .

وصار العلم وبالا ونكبة للانسان بدلا من أن يكون سبيل رفعته وطريق مجده وشهرته .

فلا يجوز للانسان أن يفكر الا من خلال عقل القس أو الراهب ، والا فمصيره المقصلة أو الحرق .

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٣٢ .

وبلغ الطغيان الكنسي ذروته عندما فرضت الكنيسة على الناس أن لا يدخلوا بزوجاتهم الا بعد أن يدخل بهن رجال الكنيسة ، والا سبقتهم اللعنة الى الفراش .

الى غير ذلك من أمور الانحطاط الخلقي الذي مارسه البابوات والكرادلة ورجال الدين ، مما لا يجمل ذكره ، ويحسن الإعراض عنه ، لما فيه مما يتنافى مع مكانة الدين الذي حرفوه واستغلوه، وكرامة الانسان الذي أهانوه واحتقروه .
مما جعل كل ذي عقل وكرامة يعمل كل ما بوسعه من أجل التخلص من هذا الاضطراب المستبد في ظل الكنيسة والمتمسح بالدين . .

وكانت الثورة الساخطة ، ليس على الكنيسة وكهانها فقط ، بل على الدين نفسه ، لأن أولئك المستبدين ما مارسوا ما ما رسوه الا باسم الدين .
ومن ثم عمم أولئك الثائرون على الديانة النصرانية والكنيسة ، عمموا نظرتهم الثائرة الحاقدة لكل دين ، ولكل فكر يدعو الى الدين والألوهية . . لأنهم ذاقوا في ظلاله أشد أنواع العنف والعذاب . . بل لأنهم لم يطلعوا على حقيقة الدين بصورة عامة ، وحقيقة الاسلام بصورة خاصة .

إن الخطأ الذي وقع به الثائرون ليس في ثورتهم على الكنيسة وتعاليمها ، وظلمها واضطهادها ، فإن هذه الثورة واجبة على هذه المعاني ، وهي لا تمثل الدين ، والدين منها براء ، ولكن الخطأ في تعميمهم النقمة على كل دين في الأرض ، ولو أنصفوا لما كان أمامهم بد من اللجوء الى الدين الحق الذي لم يبدل ولم يحرف ، وفيه كل ما تسمو اليه الانسانية ، ويصبوا اليه الفكر ، وتتحقق به السعادة . .

٢ - المكتشفات العلمية الحديثة

لقد عرفنا في الفقرة السابقة أن طغيان الكنيسة وإستبدادها ، كان من أهم العناصر المباشرة التي أدت إلى الثورة على الدين . وفي هذه الحلقة سنعرض للعنصر الثاني أدى إلى هذه الثورة ، ألا وهو المكتشفات العلمية الحديثة ، والتي استغلت من قبل حملة الفكر الإلحادي أسوأ الاستغلال وأقبحه .

وسنذكر الشبه التي أوردتها ونقررها ، ثم نذكر الرد عليها .
قالوا : ان الانسان القديم - ويعنون به من كان قبل الثورة العلمية الحديثة - كان يرى الكتكوت الصغير يكسر البيضة ويخرج منها في اليوم الحادي والعشرين لحضائته تحت الدجاجة فكانوا يعجبون من هذا ، وينسبونه إلى قدرة الله التي ساعدت هذا الكتكوت على كسر البيضة والخروج منها ، والا فلا سبيل للكتكوت إلى الخروج من البيضة .

إلا أننا اكتشفنا بوسائلنا العلمية الحديثة ، أنه في اليوم الحادي والعشرين لحضانة الكتكوت يخرج على منقاره قرن عظمي صغير ، يستطيع بواسطته أن يكسر البيضة ويخرج منها .

ومادام الأمر كذلك ، فلا داعي للقول بأن قدرة الله هي التي أخرجته من البيضة ، لقد كنا مضطرين لهذا القول قبل أن نعرف العلة المباشرة التي تمكن بواسطتها من كسر البيضة ، أما وقد عرفنا ذلك فليس ثمة داع لعزو هذا الأمر للقدرة الالهية .

وقالوا : لقد كان الإنسان القديم يرى الأمطار تهطل عليه من السماء ، فينسب ذلك إلى قدرة الله وخلقها ، الا أننا اكتشفنا أن المطر انما ينزل بقانون علمي

مطرّد ، عرفنا من خلاله أن المطر يتكون نتيجة لتكاثف طبقات السحاب بلامسة طبقة جوية باردة ، ويمكننا اجراء هذه التجربة على كل مكان فيه بخار الماء ، كما يمكن للطفل الصغير ان يرى ذلك بعينه بواسطة كوب للماء مع البخار المتصاعد من ابريق الشاي ، بل اننا قادرون على انزال الامطار الصناعية بواسطة هذا القانون .

اذن فلا داعي للقول بأن قدرة الله كانت وراء نزول الأمطار ، لقد كنا مضطرين لهذا القول قبل معرفة القانون ، أما وقد عرفناه ، فلسنا بحاجة لهذا القول .

وقالوا : لقد كان الانسان القديم يرى الكواكب في السماء ، ويحار فيها ، وفي كيفية وجودها في هذا الفضاء ، واضطربت افكارهم في تعليل ذلك ، فمنهم من قال انها مربوطة بسلاسل ذهبية في السماء ، ومنهم من قال أنها مسامير لامعة طرقت في السماء ، ولما تبين لهم عدم صدق افكارهم وجدوا انفسهم مضطرين لعزو وجودها في هذا الفضاء الهائل ، ودقة حركتها فيه وجدوا انفسهم مضطرين لعزو هذا لقدرة الله ن فقالوا : أن الله هو الذي خلق النجوم ، وهو الذي يسيرها .

إلا أننا بعد أن عرفنا قانون الجاذبية الذي اكتشفه نيوتن والذي ينظم حركة جميع الكواكب في هذا الفضاء الهائل ، لم نعد بحاجة إلى القول بأن قدرة الله هي التي تحركها ، لقد كنا بحاجة لهذا القول حينما كنا نجهل القانون ، أما وقد عرفناه ، فقد عرفنا علة الحركة المنضبطة وعلة وقوف هذه الكواكب في الفضاء ، مما لا تحتاج معه إلى قدرة الله . .

ولا نريد أن نستطرد بذكر الأمثلة ، فقد وضع الانسان يده على علل كثير من الظواهر الكونية وعرف قوانينها ، وكلما وقف على قانون جديد أعاد نفس الدعوى . . لقد عرفنا العلة ، ولسنا بحاجة إلى عزو ذلك إلى قدرة الاله المجهول . .

لقد تظاهرت هذه الاكتشافات الحديثة ، والقوانين العلمية المطردة التي عرفوها - لقد تظاهرت مع مواقف الكنيسة الجائرة على النحو الذي ذكرناه في الفقرة السابقة ، لتجعل كثيرا من رواد العلم يقف في وجه الدين ، ويجحد الاله ، لان الدين يبحث فيما وراء المادة ، والاله شيء غيبي ، والعقل الحديث لا يؤمن الا بالمشاهدات والمجريات ، إلى جانب من ذكرنا من المستغلين من حملة الفكر الالاحادي والعداء للدين .

ولذلك قال جوليان هكسلي :

((تعتبر التطورات العلمية التي حدثت في القرن الماضي انفجارا معرفيا في وجه الأساطير الانسانية عن الآلهة والدين ، كما تفجرت الأفكار القديمة ونسفت بمجرد تفجير الذرة)) .

وقالوا : ((لقد أثبت نيوتن أنه لا وجود لاله يحكم النجوم ، وأكد لابلاس بفكرته الشهيرة ان النظام الفلكي لا يحتاج إلى أي اسطورة لا هوتية)) .

إلى أن قال هيوم :

((لقد رأينا الساعة وهي تصنع في المصنع ، ولكننا لم نر الكون وهو يصنع ، فكيف نسلم بأن له صانعا ؟)) .

وقال كنت :

((انني استطيع خلق الانسان لو توفر لي الماء والمواد الكيماوية والوقت)) .

وأخيرا قال نيتشه :

وسنرى في المباحث القادمة ان شاء الله من أين أتى هؤلاء المفكرون ، كما سنرى وجه الخطأ في تصوراتهم وأوهامهم .

الرد على شبه الملاحده في مكتشفاتهم

عرفنا في الفقرة الماضية أن المكتشفات العلمية الحديثة التي حصل عليها العلماء المعاصرون ، كانت من أهم الأسباب المباشرة التي ساهمت في ترويج الفكر الالحادي ، إذ أن العلماء وضعوا ايديهم على الأسباب والعلل لكثير من مظاهر الكون والحياة ، ولم يعودوا بحاجة لعزو هذه المظاهر إلى الله وقدرته - فيما زعموه من تعليل لالحادهم .

ولكن هل صحيح ان هذه المكتشفات التي ادركوها ، والقوانين العلمية التي توصلوا لها - هل صحيح انها تؤدي إلى النتيجة التي توصلوا اليها وهي انه لم تعد هناك حاجة للقول بوجود الله ، وعزو هذه الظواهر اليه ، ومن ثم فلسنا بحاجة لدين يفسر لنا هذه الظواهر . . وانها من صنع الله ؟

أن هذه المكتشفات التي وضع الانسان المعاصر يده عليها لم تزد على أنها وضعت الانسان أمام مجهول جديد لم يجد له حلا ولا تفسيراً ، ألا هو : من الذي أوجد هذا القانون الذي ينظم هذه الظواهر الكونية ؟ ومن الذي أوجد العلة التي بواسطتها يكون ذلك المعلوم ؟

سؤال جديد ، ما كان الانسان القديم يطرحه ، ولكنه لا بد له من تفسير . .

نعم . . لقد كان الانسان القديم يعزو خروج الكتكوت من البيضة في اليوم الحادي والعشرين لحضانتة ، كان يعزو خروجه من البيضة إلى قدرة الله ، ولم يكن يعرف شيئاً عن القرن العظمي الذي يظهر على منقاره فيكسر به البيضة ويخرج ، ولكنه اليوم ، وبعد أن عرف هذا القرن ، وأن الكتكوت يتمكن بواسطته من كسر

البيضة ، هل أصبح الانسان المعاصر بغنى عن قدرة الله ؟ الجواب لا ؟ لأنه أصبح اليوم أمام سؤال جديد يضطر معه إلى العزو لله وقدرته الا وهو : من الذي أوجد القرن العظمي على منقار هذا الكتكوت ؟ من الذي وضع القانون الذي ينص على أنه في اليوم الحادي والعشرين من حضانة الكتكوت سيخرج على منقاره قرن عظمي صغير يتمكن بواسطته من كسر البيضة والخروج منها ؟

أنه السؤال الجديد الذي يحار أمامه الانسان المعاصر ، مهما بلغ من العلم ، وأدرك من المعارف ، ولا بد له في نهاية المطاف من أن يعزو هذا إلى قوة وراء هذا القانون ، هي التي أوجدته وأحكمته ، ألا وهي قدرة الله وحكمته . وهذا هو الجواب الذي نرد به على بقية الشبه التي ذكرناها في الحلقة الماضية ، وغيرها من الشبه التي لم نذكرها ، والتي يروج بها أصحاب المذاهب الالحادية لا لحادهم .

نعم . . لقد اكتشف نيوتن قانون الجاذبية ، وعرفنا أنه هو الذي يحكم النجوم في هذا الفضاء ، وهو الذي يتحكم بحركتها ، ولكن هذا لا يدعونا إلى الالحاد ، وانكار الدين والألوهية ، بل وضعنا أما السؤال الجديد ، من الذي أوجد هذا القانون العظيم المحكم الذي يذهل لدقته واتقانه كل عقل بشري ؟

إنه السؤال الذي لا يدفعنا إلى الالحاد ، بل يزيدنا ايمانا بدقة الصانع العظيم ، موجد هذا القانون ، ألا وهو الله . .

أن جميع المكتشفات التي عرفناها ، والقوانين العلمية التي وضعنا أيدينا عليها ، لم تقل لنا أنه لا اله . . ، ولم تدلنا على عدم وجوده ، ولم تزد على أن وضعت أيدينا على بعض المجاهيل التي كنا لا نعرفها ، وما أكثرها في هذا الكون ، بل أرشدتنا إلى البحث عن بقية المجاهيل التي توصلنا إليها من خلال كشفنا عن هذا ا لمجهول ، والتي لم نكن لنتمكن من الوقوف عليها وبحثها لولا كشفنا لهذا

المجهول الأول الذي عرفنا به السبب والعلّة لبعض مظاهر الكون .

كما أنها زادتنا إيماناً بوجود الله وصدق الدين .

ولو كانت هذه المكتشفات ، وهذه القوانين تدل على عدم وجود الله وبطلان الدين ، لما كان بها مجال للاستدلال على وجود الله وصدق الدين ، إلا أننا نجد جميع المؤمنين يدعمون إيمانهم بوجود الخالق بهذه المكتشفات الحديثة على ما سنذكره في فقرات قادمة إن شاء الله .

وما هذه النتائج التي توصلوا إليها إلا أوهام دفع إليها اليأس المرير من الكنيسة ، بسبب الكبت الذي مارسته على العلماء والمفكرين باسم الدين .

أو أنها من المغالطات التي استغلها أصحاب الفكر الالحادي لترويج الحادهم . والعلم سلاح ذو حدين قد يذبح به الإنسان عدوه ، كما أنه قد يذبح نفسه . وصاحب الهوى يظهر الحق بثوب الباطل من أجل التمويه والتضليل ، ترويجا لضلاله وهواه .

وما مثل المنكر لوجود الله وقدرته باكتشافه لبعض القوانين العلمية إلا كمثل إنسان ؛ كان يسمع عن مركبة الفضاء ، ويعجب لدقة صنعها وعظمة صانعها ، ويتعجب من حركتها ، وطيرانها ، وهبوطها ، ويكيل صفات المدح والثناء والإعجاب لصانعها ، ثم أتيح له أن يرى مركبة الفضاء ن ويرى الآلات والمحركات التي كانت سببا في حركتها ، فلما رأى محركها وما فيها من الآلات

قال : لقد أكتشفت سر الحركة في هذه المركبة ، انها تسير بواسطة هذا المحرك ، وتلتقط الصور وتبثها بواسطة هذه الآلات ، اذن فلا داعي للقول بأن ثمة صانعا صنعها ، ولا داعي للاعجاب بقدرته .

لقد كنا نعزوها للصانع ونعجب من دقة صنعه ، عندما كنا لا نعرف سر حركتها ، وأنها مرتبطة بذلك المحرك ، أما وقد عرفنا سر الحركة والمحرك، فلا داعي لأن تنسب الحركة لذلك الصانع .

ان كل انسان عاقل يسمع بهذا القول وأمثاله ليأخذه العجب ، وتملكه الدهشة لسفاهة هذا القائل ، وجهله . .

ان اطلعنا على المحرك الذي تتحرك به المركبة ، والآلات التي بداخلها ، لا يدعوننا إلى جحود صانعها ، وانما يدعوننا لزيادة الاعجاب به ، لما في هذه الآلات من الدقة البالغة ، والاتقان ، والاحكام .

اننا كنا نعجب من قدرة الله في حركة النجوم ، ووقوفها في الفضاء ، حينما كنا لا نعرف قانون الجاذبية ، فكنا ننسب وقوفها في الفضاء وحركتها إلى قدرة الله ، وحينما اكتشفنا قانون الجاذبية ، وعرفنا أن هذه الأجرام خاضعة لهذا القانون ، وأنه في غاية الدقة والاتقان والاحكام لم يدفعنا هذا إلى جحود الله ، وانما زادنا ايماننا به وبقدرته التي أوجدت مثل هذا القانون الذي يحكم النجوم في هذا الفضاء .

اننا عندما عرفنا قانون الحركة في أصغر ذرة من ذرات الوجود وفي اكبر مجرة من مجرات السماء ، وأنها كلها تدور وتتحرك طبقا لنظام محكم بديع ، تتفق فيه جميع أجزاء هذا الكون من عناصر الذرة إلى أجرام المجرة ، اننا عندما عرفنا هذه الحركة واكتشفناها لم نزدنا الا ايماننا بالله ، وبالقوانين المحكمة التي خلقها وأحكمها ، ليدل بها الانسان على وجوده وقدرته .

إن هذه القوانين لم تقل لنا انه لا اله ، وانما دللتنا على أن الله يجري أحكامه في هذا الكون بناء على هذه القوانين .

ولنستمع إلى نيوتن ذاته ، وهو مكتشف قانون الجاذبية ، يحدثنا عن قدرة الله التي أدركها من خلال اكتشافه لهذا القانون .

قال العلامة نيوتن : ((لا تشكوا في الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون
الضرورة وحدها هي قاندة الوجود ، لأن ضرورة عمياء ، متجانسة في كل مكان
وفي كل زمان ، لا يتصور أن يصدر منها هذا التنوع في الكائنات ، ولا هذا
الوجود كله ، بما فيه من ترتيب أجزائه وتناسبها ، مع تغيرات الأزمنة والأمكنة ،
بل إن كل هذا لا يعقل أن يصدر الا من كائن أولي له حكمة وإرادة)) .

ثم قال : ((من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من
مجرد فعل الجاذبية العامة ، لأن هذه القوة تدفع الكواكب نحو الشمس ، فيجب
لأجل أن تدور هذه الكواكب حول الشمس أن توجد يد الهية تدفعها على الخط
المماس لمداراتها)) .

ثم قال : ((ليس هذا كل ما في المسألة ، فإن الله ضروري أيضا ، سواء لإدارة
هذه الأجرام على بعضها ، وهو الأمر الذي لا يمكن أن ينتج من مجرد قوة
الجاذبية ، أو لتحديد وجهة هذه الدورات ، لتتفق مع دورات الكواكب ، كما يرى
ذلك في الشمس والقمر وتوابعها)) .

ثم قال : ((وغير هذا ، ففي تكون الأجرام السماوية ، كيف أن الذرات
المبعثرة استطاعت أن تقسم إلى قسمين ، القسم المضيء منها انحاز إلى جهة
لتكوين الأجرام المضيئة بذاتها ، كالشمس والنجوم ، والقسم المعتم تجمع في
جهة أخرى ، لتكوين الأجرام المعتمة ، كالكواكب وتوابعها ، وكل هذا لا يعقل
حصوله الا بفعل عقل لاهد له)) .

فهذا مكتشف قانون الجاذبية لم يزد اكتشافه للقانون الا ايمانا بالله ، فكيف
يجوز لمن جاء من بعده أن يحرف هذا القانون ، ويجعله وسيلة إلى جحود الله . . ؟

وصدق الله اذ قال : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

﴿ الحج/٤٦ ﴾

شهادة كبار علماء الكون والحياة

بأن المكتشفات الحديثة لم تزد الإنسان الا ايماناً

سمعنا في الفقرة الماضية شهادة نيوتن ، مكتشف قانون الجاذبية ، سمعنا شهادته على أن هذا القانون لم يزد الا ايماننا بالله ، وبعظيم قدرته ، ودقة صنعه وخلقه .

وسنسمع الآن شهادة كبار علماء الكون والحياة ، سنسمع شهادتهم على أن المكتشفات العلمية ما قادتهم أبداً إلى الالحاد ، وانما هي على العكس من ذلك قادتهم إلى الإيمان المطلق والتسليم لقدرة الله .

قال العلامة الانجليزي هرشل ، وهو من أكبر علماء الفلك في العالم ، قال : ((كلما اتسع نطاق العلم ، ازدادت البراهين الدامغة على وجود خالق أزلي ، لأحد لقدرته ولا نهاية ، فالجيولوجيون ، والرياضيون ، والفلكيون ، والطبيعيون ، قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم ، وهو صرح عظمة الله وحده)) .

وقال العلامة العمراني الانجليزي هربرت سبنسر : ((نرى من بين كل هذه الأسرار التي تزداد غموضاً ، كلما زاد بحثنا فيها ، حقيقة واضحة لا بد منها ، وهي أنه يوجد فوق الانسان قوة أزلية أبدية ينشأ عنها كل شيء)) .

وقال لينيه الفزيولوجي الفرنسي في كتابه ((الله في الطبيعة)) قال : ((ان الله الأزلي الكبير ، العالم بكل شيء والمقتدر على كل شيء قد تجلى لي ببدايع صنائعه ، حتى صرت مندهشاً مبهوراً ، فأني قدرة ، وأي حكمة ، وأي ابداع

أودعه مصنوعات يده ، سواء في أصغر الأشياء أو أكبرها ، ان المنافع التي نستمدّها من هذه الكائنات تشهد بعظم رحمة الله الذي سخرها لنا ، كما أن جمالها وتناسقها ينبىء بوسع حكمته ، وكذلك حفظها عن التلاشي وتجدها يقر بجلاله وعظمته)) .

وقال مونتيل في ((دائرة معارفه)) : ((ان أهمية العلوم الطبيعية لا تنحصر فقط في اشباع نهمة عقولنا ، ولكن أهميتها الكبرى هي في رفع عقولنا إلى خالق الكون ، وتحليتنا باحساسات الاعجاب والا جلال لذاته المقدسة))^(١).

وقال ميريت ستانلي العالم الطبيعي الفيزيائي ((ان جميع ما في الكون يشهد على وجود الله سبحانه ، ويدل على قدرته وعظمته ، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها ، حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية ، فاننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار أيادي الله وعظمته ، ذلك هو الله الذي لا نستطيع أن نصل اليه بالوسائل العلمية المادية وحدها ، ولكننا نرى آياته في أنفسنا ، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود ، وليست العلوم الا دراسة خلق الله وآثار قدرته))^(٢) .

وقال العالم الكيماوي الرياضي جون كليفلاند : ((ان النتيجة المنطقية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على أن لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد أن يكون هذا الخالق حكيما ، عليما ، قادرا على كل شيء ، حتى يستطيع أن يخلق هذا الكون وينظمه ويدبره ، ولا بد أن يكون هذا الخالق دائم الوجود ، تتجلى آياته في كل مكان ، وعلى ذلك فانه لا مفر من التسليم بوجود الله خالق هذا الكون وموجهه، ان التقدم الذي احرزته العلوم منذ أيام لورد كيلفن يجعلنا نؤكد بصورة لم يسبق لها مثيل ما قاله من قبل : إننا اذا فكرنا تفكيراً عميقاً ، فإن العلوم سوف تضطرنا إلى الإيمان بالله))^(٣) .

(١) دائرة المعارف ١ / ٥٠٤ لفريد وجدي .

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص ٢٠ .

(٣) الله ص ٢٥ .

وقال أدوارد كيسيل الأخصائي في علم الحيوان والحشرات: ((لقد من الخالق على جيلنا، وبارك جهودنا العلمية بكشف كثير من الأمور حول الطبيعة، وصار من الواجب على كل إنسان ، سواء أكان من المشتغلين بالعلوم، أم من غير المشتغلين بها، أن يستفيد من هذه الكشوف العلمية ، في تدعيم إيمانه بالله (١) . هذا قليل من كثير ، من أقوال العلماء في جميع مجالات العقل والعلم ، تشهد بأن هذه المعارف والعلوم والمكتشفات كانت من أكبر الأدلة الناطقة على وجود الله وعظيم قدرته ، ودقة صنعه .

ولو أردنا أن نستطرد في ذكر أمثال هذه الشهادات لمأثنا مئات وآلاف الصفحات ، الا أن هذا القليل يغني عن الكثير ، لمن أراد أن يعرف الحقيقة ، وأما المعاند فلا سبيل إلى اقتناعه ولو وصل الأمر لدرجة البداهة أمامه . ان الالحاد المعاصر لم يكن أبدا ولن يكون في يوم من الأيام وليد المكتشفات العلمية الحديثة ، بل الأمر على خلاف ذلك تماما ، فالعلم لم ولن يؤدي أبدا الا إلى الإيمان .

ونحن لا نسوق أقوال هؤلاء العلماء لنستدل بها على وجود الله ، لأننا سنذكر الدليل مستقلا في حلقات قادمة ان شاء الله ، وإنما نسوقه لنبين أن ما ادعاه أرباب الالحاد من أن المكتشفات الحديثة كانت سببا للالحاد وانما هي دعاوي كاذبة لا يراد منها الا التضليل والخداع ، والا فها هم العلماء في كل مجال من مجالات العلم يدعمون إيمانهم بما توصلوا اليه من مكتشفات وقوانين . بل وجدوا انفسهم أنهم كلما ازدادوا علما كلما ازدادوا يقينا بالله وقدرته ، وصدق الله اذ يقول: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ

﴿فاطر/٢٨﴾ .

(١) الله يتجلى ص ٢٨ .

إجتماع الدين والعلم منذ فجر الإسلام

لقد سمعنا أقوال كبار علماء الكون والحياة ، في شتى مجالات العقل والعلم ، والتي دلتنا دلالة قاطعة ، لا مجال فيها للشك ، دلتنا على أن المكتشفات الحديثة والقوانين العلمية التي وصلنا لها ، لم تكن أبدا سببا للالحاد وإنما كانت أهم عناصر الايمان عند العقل الحديث .

وليس هذا بالشيء الغريب أو الجديد على الفكر الديني ، وإنما هو شيء قديم قدم الدين أيضا .

ولقد ساهم المسلمون بدافع من دينهم الذي حثهم على العلم والنظر في ملكوت السموات والأرض ، لقد ساهم المسلمون أعظم مساهمة في بناء صرح الحضارة التي وصل الانسان اليها الآن .

فليست الحضارة المادية والعلمية المعاصرة وليدة العقل الحديث فقط ، وإنما هي امتداد لحضارة سابقة ، كانت هي الأساس الأول لهذه الحضارة المعاصرة . على أن الحضارة التي وصل اليها علماء المسلمين ، والقوانين العلمية التي عرفوها ، لم تكن دالة لهم على الدين والألوهية ، وإنما كانت قائمة باسم الدين واسم الله .

فقد اكتشف أجدادنا المسلمون كثيرا من القوانين العلمية ، ووضعوا كثيرا من العلوم التي لم تكن معروفة لأحد قبلهم ، والتي لها أكبر الأثر في الحضارة الحديثة ، كالجبر ، والمثلثات ، والكيمياء ، وغيرها من العلوم .

وأنا لا أريد أن أطري الحضارة الاسلامية بمدحي وثنائي ، ولكنني سادع

الكلام للعلامة درابر ، الأستاذ بجامعة نيويورك الأمريكية في كتابه ((المنازعة بين العلم والدين)) فهو الذي سيحدثنا عما وصل اليه أجدادنا وأسلافنا ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، قال درابر :

((ذاق العرب في الفنون الأدبية كل ما من شأنه أن يحد القريحة ، ويصقل الذهن . . إلى أن قال : أما العلوم فقد كان تفوقهم فيها ناشئا من الأسلوب الذي توخوه في المباحث . . فقد تحققوا أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها ، ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العملي الحسي ، وكانوا يعتبرون الهندسة ، والعلوم الرياضية أدوات لعلم المنطق ، وقد يلاحظ المطالع لكتبهم العديدة على الميكانيكا ، وعلم موازنة السوائل وضغطها على جدران أوعيتها ، ونظريات الضوء والإبصار بأنهم قد اهتموا إلى حلول مسائلهم عن طريق التجربة والنظر بواسطة الآلات ، وهذا هو الذي قاد العرب لأن يكونوا أول الواضعين لعلم الكيمياء ، والمكتشفين لبضع آلات للتقطير والتصعيد ، واسلة الجوامد والتصفية .

ثم قال : ((وقد اهتم العلماء الفلكيون من العرب اهتموا بتحسين آلات الأرصاد وتهذيبها ، وبحساب الأزمنة بالساعات المختلفة الأشكال . . وهم أول من استعمل البندول لهذا الغرض .

أما في عالم العلوم التجريبية ، فقد أكتشفوا الكيمياء ، وبعضا من محلاتها الشهيرة كحمض الكبريتيك ، وحمض النتريك ، والكحول .

واستخدم العرب علم الكيمياء في الطب ، لأنهم أول من نشر علم تحضير العلاجات ، واستخراج الجواهر المعدنية .

أما في علم الميكانيكا فانهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام ، وكانوا عارفين تمام المعرفة بعلم الحركة .

وأما في علم موازنة السوائل وتقدير الضغط الواقع منها على أوانيها ، فقد كانوا أول من عمل الجداول المبينة لأنواع الأوزان النوعية ، وكتبوا أبحاثا على الأجرام السابحة والغائصة تحت الماء .

وأما في نظريات الضوء والابصار فقد غيروا الفرض اليوناني الذي مقتضاه أن الابصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي ، وقالوا بعكس ذلك ، أي أن الابصار يحصل بوصول الشعاع من المرئي إلى العين ، وكانوا يعرفون نظرية انعكاسات الأشعة وانكساراتها .

وقد اكتشف الحسن بن الهيثم - وهو واضع علم البصريات - ((اكتشف الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره في الجو ، وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهر حقيقة في الأفق ، وكذلك في الغروب نراهما قليلا بعد أن يغربا)) .

هذا بعض ما قاله درابر عن المكتشفات العلمية التي وصل اليها المسلمون ، وهي مما لا يخفى على أحد في الأرض ، ولو ذهبنا نستقصي ما وصل اليه الأجداد ، لضاق علينا الزمن ، واحتجنا إلى فصول وفصول .

وأن الذي نريده من هذا السرد التاريخي للحقائق العلمية التي وقف عليها المسلمون ، ان الذي نريده هو أن نبين لكل ذي عقل أن العلم والدين صنوان ، لا يفترقان ، وأن العلم ما قام في أمتنا الاسلامية الا باسم الله والدين ، وما ازداد أسلافنا باكتشافاتهم الا إيماننا بالله ، وما سمعنا أبدا عن أي واحد منهم أنه كفر بالله لما وصل اليه من مشاهدة ، أو قانون . . ولو كان الدين يتنافى مع العلم لكان من الواجب أن لا نرى عالما على دين ، الآن الواقع يقول ، ان العلم من أكبر الحوافز للإيمان بالله قديما وحديثا . على ما رأيناه في علماء أمتنا ، وعلماء العصر الحديث .

الدين أعظم دعامة للعلم

ان ما ذكرناه في الفقرات السابقة كان لبيان الأوهام والشبه التي تعلق بها أرباب الفكر اللاحادي ، من أن الدين يتنافى مع العلم ، فقد بينا بما لا يدع مجالا للشك أنه لا تعارض بين الدين والعلم ، وأن ما زعموه من هذا التعارض انما هو من قبيل المغالطات التي سلكها المستغلون وأصحاب الأغراض وهي أوهمن بيت العنكبوت ، ورأينا كيف ان العلم كان من اهم العوامل الباعثة على الإيمان . . وأن الدين والعلم صنوان لا يفترقان على أساسهما قامت حضارة الاسلام العظيمة . . ونريد ان نبين في هذه الفقرة أنه كما كان العلم من أهم الحوافز الدافعة إلى الإيمان ، نريد أن نبين أن الدين كان ولا يزال من أعظم دعامات العلم ، بل أن الفجر الصادق للعلم لم يبرز الا في ظلال الدين .

ان نظرة سريعة خاطفة إلى كتاب الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ن وأقوال فقهاء المسلمين لكفيلة بأن تبين لنا هذا المعنى الذي أشرنا اليه ، على انه عندنا نحن المسلمين أوضح من الشمس في رابعة النهار ، الا أننا نسوق هذا ونذكره ليعلمه من فاتته الوقوف على حقائق الدين . .

فها هو القرآن الكريم يجعل شهادة العلماء على وحدانية الله في المرتبة الثالثة بعد شهادة الله وشهادة ملائكته ، فيقول : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ آل عمران / ١٨ ﴾

ورفع مكانة العلماء على غيرهم من المؤمنين درجات فقال : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ

آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ المجادلة / ١١ ﴾

ونفى الاستواء بينهم وبين غيرهم مم لم يتصفوا بالعلم فقال : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي

الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ الزمر / ٩ ﴾ .

بل خص الخشية منه والمعرفة بحقيقة قدرته وعظيم سلطانه بالعلماء فقال :
﴿ انما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ فاطر / ٢٨ .

ولفت نظر الانسان إلى ما في الكون من بديع الصنع ، ودليل القدرة فقال : ﴿
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ
النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ
وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿ البقرة/١٦٤ ﴾

مشيرا إلى أن ادراك هذه القدرة الالهية انما هو من صفات العقلاء المدركين .
ولم يكتف بهذا بل حث الناس على السير في الأرض ، والنظر في آثار رحمة
الله فيها ، من نصب الجبال وخفض الأودية ، وانزال الأمطار ، وانبات الأشجار ،
وغير ذلك من الآثار الدالة على يد القدرة .

بل ارتقى بهم إلى النظر في ملكوت السموات والأرض فقال : ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ﴿ يونس/١٠١ ﴾ ﴿ سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى
يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ﴿ فصلت/٥٣ ﴾
وأمرنا أن ننظر في النفس الانسانية لنرى من خلالها معجزة القدرة فقال : ﴿
وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ الذاريات/٢١ ﴾

ثم تحدى الانسان بالنفوذ من أقطار السموات والأرض ان استطاع ، ليعرف
الانسان عجزه أمام قدرة الله فقال : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ
أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ ﴿ الرحمن/٣٣ ﴾

وهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع العلماء إلى درجة لم يرتقوا لها في عصر من العصور فيجعلهم ورثة الأنبياء ، ويجعل سلوك طريق العلم طريقا إلى الجنة فيقول : ((من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، وان الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم ، وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وان فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وان العلماء ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)) .

وجعل عقاب الذي يكتُم علمه اذا سنَّله عقابا شديدا فقال : ((من سنَّ عن علم فكتَّمه ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة)) .

ولن نتمكن من سرد جميع ما ورد في القرآن والسنة مما يحث على العلم ، ويرفع مكانته ، وهو أشهر من أن يذكر ، وأكثر من أن يحصر . .

ولذلك اتفق فقهاء المسلمين على وجوب طلب العلم ، وجعلوا بعضه فرض عين ، يجب على كل مسلم أن يعلمه ، وبعضه فرض كفاية ، يجب على بعض الأمة القيام به ، وهو كل ما كانت الأمة بحاجة اليه في شتى مجالات العلم وفروعه .

أفيجوز بعد هذا أن يقال : ((ان الدين يتنافى مع العلم)) أو أن يقال : أن العلم الحديث أبطل الدين ، ان أي عاقل في الدنيا ، يرى في الدين هذا الحث على العلم والأمر به ، ليعلم علما يقينا أن الدين والعلم لا يفترقان ، وأن كلا منهما دعامة للآخر ، فالدين يحث على العلم ، والعلم يسوق إلى الدين ، ولو كان العلم يتنافى مع الدين لكان أول واجب من واجبات الدين أن يحاربه ، ويثبط همم الناس عنه ،

ويعاقبهم عليه ، كما فعل أرباب الكنيسة حينما حرفوا شريعة الله واستغلوا البشر باسم الدين المزيف الذي حرفوه وبدلوه ، أما وقد عرفنا ما عرفنا عن احترام الدين للعلم وحثه عليه ، فلا يجوز لنا بعد ذلك الا أن نعلن النتيجة الحتمية ألا وهي بطلان دعوى الالحاد في التنافي بينهما ، وتثبيت مبادئنا القائلة ((ما عز العلم الا في ظلال الدين)) .

قضية منكري الدين ودعاويهم

دعوة فلاسفة الالحاد أن العلم لا يؤمن الا بالمشاهدة أو التجربة

لم يكتف رواد الالحاد في العصر الحديث ، لم يكتفوا بقولهم : ان معرفة العلة والمعلول ، من خلال المكتشفات التي وقفوا عليها قد دفعتهم إلى جحود الله ، لانه لم تعد لهم حاجة إلى الغزو لقدرته ، وقد بينا بطلان هذا – وانما زادوا على ذلك فوسعوا قضيتهم بدعوى جديدة مفادها : إن أي شيء في الوجود لا يمكن أن يصير حقيقة علمية ، الا اذا كان خاضعا للتجربة أو المشاهدة ، فالحقيقة العلمية لا تعد والملاحظات والمجربات ، وكل ما لم يشاهد أو يجرب ، فهو فرض محض ، مبني على استقراء واستنتاج ، وهو من قبيل الايمان الغيبي بما خفي عن الحواس وهذا لا يعد حقيقة علمية ، ولذلك فهو مرفوض في دنيا العلم والعقل الحديث .

فمثلا لو قال انسان ما : ان المجرات السماوية ليست سحباً مشعة ، وانما هي مجموعات من النجوم الكثيرة ، وانما رأيناها على شكل السحاب المشع ، لبعد المسافة بيننا وبينها ، فان هذا الكلام يبقى عقيدة داخلية خاصة بقائلها ، لأنه لم يستطع اثبات ذلك بالتجربة أو الحس ، ولا يكون كلامه هذا حقيقة علمية ، فاذا ما أتى بالمنظار المكبر ، ومكننا من رؤية هذه السحب على أنها نجوم كثيرة ، لم نتمكن من رؤيتها بالعين المجردة للبعد الهائل بيننا وبينها ، اذا تمكن من هذا ، فعند ذلك يصير كلامه حقيقة علمية يؤمن بها كل من شاهدها .

ولو قال إنسان إن السبب في احمرار الدم راجع إلى الكريات الحمراء التي فيه ، وهي خلايا صغيرة الحجم ، لا يمكن مشاهدتها بالعين المجردة ، فان هذا الكلام يبقى عقيدة داخلية لصاحبه ، ما لم يأت بالمنظار المكبر ويمكن الآخرين من

رؤية هذه الحقيقة ، فإذا ما فعل هذا ، ومكن الآخرين من المشاهدة ، عند ذلك يصير كلامه حقيقة علمية ثابتة .

وبناء على هذا فإن المعتقدات الدينية بأسرها لا يمكن مشاهدتها ، كما لا يمكن إجراء التجارب عليها ، فهي إذن بناء على قواعد العقل الحديث في الحقائق العلمية ، هي عقائد داخلية خاصة بأصحابها ، وليست حقائق علمية ، فهي إذن دعوى لا برهان عليها .

ومن ثم قالوا : ((ان موقف علماء الأديان أشبه برجل يكتب شيكا لا رصيد له في المصرف ان عباراتهم صحيحة من الناحية اللغوية ، ولكنها ليست لها أساس علمي))^(١).

ان التطورات العلمية الحديثة ، القائمة على الحقائق العلمية المحسوسة أو المجربة نافية للدين من تلقاء نفسها . إذ لا يمكن لها أبدا أن تتفق مع تفسير الدين للكون والحياة ، والأحداث والوقائع ، لأن تفسيره لها غير خاضع للتجربة أو المشاهدة ، فهو تفسير باطل ، وأما حقائقنا العلمية فهي مبنية على التجربة أو الحس ، فهي تفسير حقيقي صادق للحقائق الموجودة على مسرح الحياة .

وقالوا : ان كل ما في الكون من مظاهر الابداع المادي ، وظواهر الإدراك العقلي يمكن تعليله بفعل القوانين الطبيعية التي وقفنا عليها ، وما دام الكون بأسره خاضعا لهذه القوانين الطبيعية فمن العبث افتراض وجود صانع ومحرك له لا نتمكن من مشاهدته^(٢).

وقد عبر عمدة الملاحدة الماديين د . بوخنر في كتابه (المادة والقوة) عبر عن هذا بقوله .

(١) الدين في مواجهة العلم ص / ٦ الاسلام يتحدى ص ٣٤٩ .

(٢) هدسن نتل معارف ١ / ٥٠٨ .

((كل الأجرام السماوية ، كبيرة اوصغيرة ، تخضع صاغرة بغير استثناء ولا انحراف ، الى القاموس الملازم لكل مادة ، ولكل جزء من مادة ، كما تدلنا عليه التجربة من أن لآخر ، وأن جميع حركاتها تبدو لنا ، وتحدد أمامنا ، وتنبئنا عن حدوثها بضبط رياضي لا يتطرق اليه الخلل^(١) وقال : ((أنه لم يشاهد أبدا في أي مكان حتى أبعد مدى من الفضاء الذي يدركه بالتلسكوب حادثة شاذة عن النظام تسوغ للانسان الاعتقاد بضرورة وجود قوة مطلقة ذات تأثير على الكائنات ومتميزة عنها^(٢)).

هذا كلامه في سياق الكلام على نفي القصد في الخلق ، ونفي الخالق وهذا يعني ان الكون مادي من أول ذرة فيه الى آخر ذرة ، وأن كل حركاته ومظاهره ، سواء كانت مختصة بالأشياء الحية أو الجمادات ، انما هي من أعمال المادة الذاتية ، وليس في هذا الكون أي أثر لوجود الخالق القاصد ، المدبر ، الحكيم ، الذي تفرضه الأديان ، وتوجب الايمان به .

وسنرى في الفقرة القادمة ان شاء الله زيف هذه القضايا التي موهت بطلاء العلم والتجربة ، والمشاهدة والحس ، لنعلم ويعلم كل انسان مدى المغالطات التي يرتكبها دعاة الالحاد ومروجوه في العصر الحديث بواسطة برهان الخطأ الذي نبه له علماء المنطق منذ أقدم العصور .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٨ / ٥٠٧ .

(٢) دائرة المعارف ١ / ٥٠٧ .

نقد دعوى الملاحدة ونقضها

لقد عرفنا في الفقرة الماضية أن دعوى المعارضين للدين قائمة على أساس أن الحقائق العلمية التي توصلوا اليها انما قامت على التجربة ، أو المشاهدة ، وليس كذلك الحقائق الدينية ، فهي أمور غيبية ، لا يمكن اجراء التجارب عليها ولا مشاهدتها ، وبناء على ذلك فهي ليست حقائق علمية ، ولذلك لا يجوز الايمان بها .

ونحن سنناقش هذا المعيار العلمي الذي فرضوه ، وهو التجربة أو الحس والمشاهدة ، لنرى من خلاله الحقائق العلمية التي يؤمن بها العقل الحديث ويعتبرها من المسلمات ، ليست خاضعة بأسرها لهذا المعيار العلمي الذي افترضه ، وأن كثيرا منها إن لم يكن أكثرها ، قائم على أساس الاستنباط والاستنتاج والاستقراء الذي رفضوا به الدين .

ان هذا المعيار العلمي الذي فرضوه ، وهو القائم على التجربة أو المشاهدة ، أولا وقبل كل شيء ، ليس على درجة واحدة في كل المشاهدات ، بل هو على درجات متباينة من الناحية العملية .

فالدرجة الأولى لهذا المعيار هو أن يكون الأمر الذي نريد مشاهدته أو تجربته في متناول يدنا مباشرة يمكننا أن نراه ونجربه من جميع وجوهه على السواء ، وذلك كمن يقول : إن الماء يحتوي على كائنات حية ، فإذا ما طلبناه بالبرهان على قوله ، أمكنه أن يأتي بقطرة من الماء ويضعها تحت المجهر ، ليؤكد لنا بالمشاهدة المباشرة وجود عدد كبير من هذه الكائنات في هذه القطرة من الماء .

وفي هذه الحالة نتمكن من رؤية الأمر الذي نريد اثباته ، نتمكن من رؤيته

مباشرة ومن جميع الجهات ، وفي جميع الظروف والأحوال .

وأما الدرجة الثانية لهذا المعيار هي أن لا تكون الدعوى المراد اثباتها، أن لا تكون قابلة للمشاهدة كليا ، من جميع الوجوه ، بل يمكن مشاهدة بعض أجزائها ووجوهها .

وذلك كدعوى كروية الأرض ، فإن الانسان لا يمكنه أن يرى صورة الأرض كاملة ، الا أنه يستطيع أن يشاهد أجزاء مختلفة تؤكد بمجموعها كروية الأرض ، وذلك بأن يلتقط صورة الأرض من مركبة الفضاء مثلا ، فإن هذه الصورة ستظهر الأرض كروية كما يظهر القمر تماما ، والحقيقة أن هذه الصورة ليست الا جزءا من كرويتها ، وليست هي الصورة الكاملة لها .

ولا أظن أن أحدا في الدنيا يزعم أن قانون التجربة أو المشاهدة في هاتين الدرجتين على حد سواء وإن كان الإنسان يحصل على العلم الكامل في كلا الدرجتين ، الآن العلوم تتفاوت ولكن ، هل كل الحقائق العلمية التي نعرفها اليوم من هاتين الدرجتين.....؟ الحقيقة أن معارفنا وحقائقنا العلمية التي وقفنا عليها من خلال هاتين الدرجتين بسيطة جدا ، اذا ما قيسست بمجموع علومنا ، بل اننا لم نحصل على حقيقة ذات أهمية . عن طريق هذا النوع من المشاهدات ، بالرغم من أن دراستنا للكون تؤكد وجود ما لا يحصى من الحقائق ذات الأهمية في هذا الكون ، كما يقول الأستاذ وحيد الدين خان في كتابه ((الدين في مواجهة العلم))^(١).

ولذلك كان لابد للعقل أن يضيف معيارا جديدا للاستدلال يتلخص في أن لاستدلال يعتبر مقياسا علميا سليما اذا شوهدت فيه تجربة ، تؤكد هذه التجربة وجود حقيقة ما، وذلك بالرغم من عجزنا عن مشاهدة تلك الحقيقة من جميع

(١) ص / ٦ .

جوانبها في تلك التجربة التي أجريناها .

وذلك كالألكترون الذي لا يمكن مشاهدته لتناهي صغره ، بحيث يعجز الإنسان عن مشاهدته مهما أوتي من العلم والطاقة ، كما أنه لا يمكن لميزان وزنه ، ولكنه بالرغم من ذلك يعتقد العلماء بأن الإلكترون حقيقة علمية .

كيف أثبت العلماء هذه الحقيقة وهم لم يروها ولم يجربوها ؟ والجواب على هذا السؤال هو أن الإلكترون مع أنه لا يمكن رؤيته إلا أنه له آثار نشاهدها في صورة تجارب قابلة للتكرار والإعادة ، ولا يمكن تفسير تلك التجارب إلا بأن نسلم بأن هناك نظاما اليكترونيا ، فالإلكترون في ذاته فرض ، إلا أنه يستند الى تجربة غير مباشرة ، ولذلك يسلم العلم بوجوده .

وهذه الاضافة الثالثة في مقاييس الاستدلال هي التي مكنتنا من الوصول الى حقائق ذات أهمية عميقة نسميها اليوم علم الطبيعة الجديدة ، أو علم الفضاء وبهذا نعلم أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين ، وأن العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة .

كما أن هذا المقياس الثالث الذي ذكرناه ليس هو الأخير في معيار الاستدلال ، لأن الحقائق التي نتوصل اليها بواسطته ليست الا حقائق فنية والواقع أن الحقائق التي لها أهمية تبدأ حيث تنتهي الحقائق الفنية ، ومثال ذلك دراستنا لحياة الإنسان وأعضائه ، فأنها كشفت لنا كثيرا من الحقائق ، ولكن الحقيقة ذات المغزى الأهم وهي المتعلقة ببداية الإنسان ونهايته لم نتعرف عليها من خلال علم الحياة والأعضاء^(١).

ولذلك كان لابد لنا من مقياس استدلالي جديد نرجع اليه ، ونعول عليه ، يكشف لنا عن هذه الأمور ذات الأهمية ، التي لم نتمكن من الحصول عليها من خلال المعايير الاستدلالية الثلاثة السابقة .

(١) الدين في مواجهة العلم ص / ٧ .

قبول مبدأ الاستنتاج :

من أجل هذا اضاف العقل الحديث مقياسا استدلاليا رابعا بنى عليه كثيرا من النظريات العلمية التي آمن بها وتبناها .

وخلاصة هذا المقياس هو الإستنتاج والاستنباط من خلال المشاهدات والملاحظات ، وإن لم تكن مرتبطة بالقضية المطروحة ، الا أنه اذا كانت هناك قرينة جائزة لتأييد تلك القضية ، فان الاستدلال بهذه القرينة على القضية المطروحة سيكون مقبولا ومسلما .

وهذا إذا لم تكن هناك نظرية أقوى من هذه التي توصلنا اليها تفسر تلك المشاهدات والملاحظات .

وهذا المقياس الرابع مقبول عند العقل الحديث ، وأي ادعاء تتوفر فيه شروط هذا المقياس يصبح نظرية علمية مقبولة .

ولذلك يقول البروفيسور ا . ي . ماندير :

((ان الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى ((الحقائق المحسوسة)) ، بيد أن الحقائق التي توصلنا الى معرفتها ، لا تنحصر في الحقائق المحسوسة ، فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة ، ولكننا عثرنا عليها على كل حال ، ووسيلتنا في هذا السبيل هي الاستنباط ، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه ((بالحقائق المستنبطة)) والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين وانما الفرق هو في التسمية ، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة ، وعلى الثانية بالوساطة ، والحقيقة دائما هي الحقيقة ، سواء عرفناها بالملاحظة أو بالإستنباط .

ويقول : ((ان حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل ، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر ، هناك وسيلة هي الإستنباط أو التعليل

وكلاهما طريق فكري، نبتدىء به بوساطة حقائق معلومة حتى ننتهي بنظرية نقول : ان الشيء الفلاني يوجد هنا ولم نشاهده مطلقاً^(١).

ويقول : ((ان الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقائق الكون ، غير أن هذه الحقائق ندركها بالحواس قد تكون جزئية وغير مرتبطة بالأخرى ، فلو طالعناها فترة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقاً ، فإذا ما درسناها في ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سندرك حقيقتها^(٢).

وقد ضرب ما ندير لذلك مثالا قال فيه :

((اننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض ، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ، ويطلب جهدا ، ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك ، ونعلم أن الصعود في الجبل أشق من النزول منه ، ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لاحداها بالأخرى ظاهرا ، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية هي ((قانون الجاذبية)) وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق ، فنعرف للمرة الأولى أنها كلها مرتبطة احداها بالأخرى ارتباط كاملا داخل النظام .

وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة فلن نجد بينها أي ترتيب ، فهي متفرقة ، وغير مترابطة ، ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق المستنبطة فستخرج صورة منظمة للحقائق .

فقانون الجاذبية الذي أشار اليه ماندير ، والذي أستنبط من مجموعة مشاهدات ، هذا القانون لا تمكن ملاحظته ، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية ، وانما هي أشياء أخرى اضطر العلماء معها للإيمان بهذا القانون الذي اكتشفه نيوتن ، وصار حقيقة علمية ولكن ، ما حقيقة هذا القانون من

(١) الإسلام يتحدى ص / ٦٢ - ٦٣ .

(٢) المرجع السابق .

الناحية التجريبية ؟ أنه أمر غير مفهوم ، كما قال نيوتن نفسه في خطاب أرسله إلى بنتلي ، قال فيه : ((أنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا احساس وهي تؤثر على مادة أخرى ، مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما)) .

فنظرية معقدة غير مفهومة ولا طريق إلى مشاهدتها ، تعتبر اليوم بلا جدال حقيقة علمية ، لماذا . . ؟ لأنها تفسر بعض ملاحظتنا .

فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة ، فالعقيدة التي تربط بعض ما نلاحظه ، وتفسر لنا مضمونه العام – تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة (١) .

ولذلك يقول الفيلسوف الانجليزي براتراندرسل ، وهو من أكبر الفلاسفة الملحدون في هذا العصر .

((انني أومن بالمبدأ القائل بأن هناك طرقاً معقولة لا استنباط وقائع من وقائع أخرى ، وبالتحديد الاستنباط من وقائع أعرفها بدون استنباط لوقائع لم تتأت لي معرفتها بتلك الطريقة .

ويقول : ((انني أجزم بأن هناك طرقاً للاستنباط أقرب إلى الحق ، ويجب قبولها ، رغم أنه لا يمكن اثباتها بالتجربة (٢))) .

ونحن انما نسوق هذه الأقوال لنبين من خلالها أن العقل الحديث لا يحصر مبدأ معرفته ومعلوماته بما يحرك أو يشاهد فقط ، بل اتخذ وسائل أخرى وهي وسائل الاستنباط والاستنتاج من خلال المشاهدة والملاحظة ، وأن الحقيقة العلمية التي يتوصل اليها عن طريق هذا المعيار في قوة جميع الحقائق العلمية الأخرى التي حصل عليها بالتجربة والمشاهدة ، كما سمعنا هذا من كبار الفلاسفة المعاصرين المعادين للدين والمؤيدين له على السواء .

(١) الإسلام يتحدى ص / ٦٤ .

(٢) الدين في مواجهة العلم ص / ١٩ .

توضيح المعيار الرابع :

ولتوضيح هذا المعيار الذي أمن به العقل الحديث وجعله وسيلة لقوانينه ومعارفه سنضرب - عددا من الأمثلة نبين من خلالها كيف اعتمد العقل الحديث على هذا المعيار ، لنخلص من خلالها إلى أن الفكر الديني ، وعقيدة الألوهية والوحدانية لم تخرج عن نطاق المعايير العلمية التي فرضها العقل الحديث للوصول إلى الحقائق ، وأن الفكر الالهادي لم يعاد الدين لأنه لا يستند إلى قواعد علمية حقيقية ، بل عاداه عنادا وجحودا وعصبية ، كما سنرى ذلك من خلال الأمثلة التي سنسوقها ، ومن خلال أقواله واعترافاته .

لقد ادعى المعارضون للدين أن الدين باطل ، ((وأنه لا يستند إلى أساس ، وصارت هذه الدعوى عقيدة يحملها الماديون أصحاب الفكر الالهادي)) . ولكن إذا سألنا أصحاب هذه الدعوى ، إلى أي معيار استدلالي استندتم في حكمكم هذا ؟ فأننا سنجد الجواب أنهم استندوا إلى المعيار الاستدلالي الرابع ، القائم على الاستنباط والاستنتاج .

وذلك لأن العقل الحديث يرى أن الدين مجموعة من العقائد الذاتية الخاصة بأصحابها ، وأنها لا يمكن إخضاعها للتجربة العلمية ، وبناء على ذلك حكموا ببطلانها . .

ولكن حكمهم هذا الذي أصدروه ببطلان الدين فيه تناقض ، وذلك لأنهم انما رفضوا الدين لأنه عقائد لا يمكن أن تخضع للتجربة ، وما كان كذلك فهو باطل ، إلا أنه يجب أن يكون حكمهم باطلا أيضا ، للسبب نفسه ، وذلك لأنه لا يجوز لهم أن يحكموا ببطلان الدين الا اذا تمكنوا بواسطة المشاهدة والتجربة أن يثبتوا أن حقائق الدين وقواعده باطلة ، وذلك شيء لا سبيل إليه بناء على ما افترضوه من أن حقائق الدين وقواعده باطلة ، وذلك شيء لا سبيل إليه بناء على ما افترضوه من أن حقائقه غير قابلة للتجربة ، وبناء على ذلك فحكمهم الذي أصدروه ضد الدين باطل قطعاً .

اننا سنستعمل نفس أسلوبهم في الاستدلال ، والنقاش والجدل ، فكما أنهم لا يؤمنون الا بما يشاهد ويجرب - فاننا من حقنا أن لا نؤمن الا بما يشاهد ويجرب ، وهم لم يستطيعوا أن يثبتوا لنا أن حقائق الدين باطلة بواسطة التجربة ، وعليه فحكمهم الذي أصدره ضد الدين باطل قطعاً .

فما هو مقياسهم الاستدلالي الذي أوصلهم إلى هذه النتيجة التي أصدروها ضد الدين ؟ وما دامو لم يشاهدوا ولم يجربوا . . ؟

ان المعيار الاستدلالي الذي سلكوه هو المعيار الرابع الذي ذكرناه والذي يعتمد على الاستنباط والاستنتاج من المشاهدات والملاحظات ، وان لم تكن مرتبطة بالقضية المطروحة مباشرة ، مادامت هناك قرينة تؤيد هذا الاستنتاج .

لقد اكتشفوا قانون الجاذبية ، وعرفوا أنه هو الذي يمسك الكون وينظمه ، كما اكتشفوا قانون هطول الأمطار، وهبوب الرياح ، وقوانين القوة والحركة ، ورأوا أنه بناء على هذه القوانين وغيرها ، رأوا أن الكون خاضع في حركته لنظامها ، وأنه لا تخرج ذرة واحدة فيه عن هذا النظام ، وبناء على ذلك استنبطوا أنه لا إله يحكم النجوم ، وقالوا ما دامت الأمور مرتبطة بقوانين طبيعية ، فلا يجوز لنا أن ننسبها لأمر وراء الطبيعة ، فسبيلهم إذن هو الاعتماد على القانون الرابع والا فانهم لم يتمكنوا بواسطة التجربة أن يثبتوا لنا أنه لا إله في هذا الكون يحكمه ويصرفه .

استعمال المؤمنين للقانون الرابع

إلا أن هذا المقياس الرابع الذي اعتمدوا عليه في ابطال الدين هو بذاته من أكبر الأدلة على صحة الدين وحقيقته .

لأننا سنقول كما أنكم أجزتم لأنفسكم أن تستنبطوا من خلال هذه

المشاهدات هذا الحكم ، وهو بطلان الدين ، يجوز لنا أيضا أن نستنبط من خلال هذه المشاهدات صحته ، واستنباطنا أقرب من استنباطكم وأصح .

وذلك لأن هذه المشاهدات لم تفسر لنا الا بعض الظواهر ، ولم نخبرنا عن الحقائق الكامنة وراءها ، والا فمن أين أتت هذه القوانين التي يسير عليها الكون ، وبهذه الدقة وبهذا الأحكام ، أن مشاهداتنا هذه لم ولن تدلنا على عدم وجود الله ، وانما نستنتج من دقتها واحكامها أنه لا بد أن يكون لهذا الكون صانع عظيم وحكيم ، هو الذي أوجده على هذا المستوى من الدقة والاحكام والانتظام .

وكلامنا هذا ليس من قبيل العقائد التي لا تستند إلى دليل ، وانما هو كلام استند إلى نفس الدليل الذي أصدرتم به حكمكم ببطلان الدين ، وهو المقياس الرابع ، فكما جوزتم لانفسكم استخدامه ، يجوز لنا أن نستخدمه ، والا فمنعنا من استخدامه تعنت وعناد ، على أن استخدامنا له أوضح وأتم من استخدامكم ونتائجنا أظهر وأوضح من نتائجكم .

اننا كما أمنتكم بهذا المعيار آمنا به ، وكما بنيتم عليه بنينا .

مثال آخر لتوضيح القانون الرابع :

وما ذكرناه من المثال السابق في بطلان الدين - على زعمهم - كان مثالا سلبيا للقانون الاستدلالي الرابع .

وأما المثال الايجابي فيمكن أن نلخصه في البحث عن أصل الأنواع الأرضية ، إذ طال بحث الانسان - الذي لم يؤمن بالدين - طال بحثه عن أصل وجوده ، ووجود الأنواع الأرضية ، والحياة وتضاربت نظرياته في هذا الميدان .

وسوف اقتصر في هذا المجال على نظريتين من هذه النظريات وهما نظريتا ماييه ودارون . على أن إحداهما وهي نظرية ماييه قد اندرست رغم ما كونه من الانتصار لها ، وأما الثانية فلا زالت رغم بطلانها علميا - كما سنبين ذلك - لا زالت تجلس في مكان الله في تخيلات الماديين والملحدين . .

وانما نسوق هاتين النظريتين لانهما لم تبنيَا على القوانين الاستدلالية الثلاثة الأولى والتي تعتمد المشاهدة المباشرة والتجربة ، وانما بنيتا على الإستنتاج والإستنباط ، ومع ذلك فقد حظيت نظرية دارون برضا معظم الباحثين عن أصل الحياة .

نظرية ماييه :

أما ماييه فهو من كبار علماء القرن التاسع عشر ، ومقتضى نظريته أن البحر أصل الكائنات الأرضية على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وذلك بناء على أن البحر قد عم سطح الأرض في عصر من العصور ، وبهذه الوسطة انتقلت المخلوقات الى الأرض وعاشت فيها ، وعلى هذا فكل ما يشاهد على الأرض من أحقر خلية نباتية الى أرقى حيوان – وهو الإنسان أصله البحر .
قال ماييه :

لا يوجد حيوان في الأرض ، سواء كان ماشيا على قدمية أو طائرا بجناحيه أو منسحبا على بطنه الا وفي البحر أنواع مشابهة له أو قريبة منه ، وان انتقال هذه المخلوقات من الماء الى الهواء ليس بممكن فقط ، بل هو أمر ثابت بجملة أدلة ، ونحن هنا لا نريد أن نتكلم فقط على الحيوانات البرية ، أو البحرية ، أو الثعابين والسلاحف ، وكلاب الماء ، ولا على الحيوانات العديدة التي تعيش في الماء والهواء على حد سواء ، ولكننا سنتكلم على الحيوانات التي لا تستطيع أن تعيش الا في الهواء .

ثم قال مستدلا على نظريته : ((يكفيك أن تختبر أشكال الحيوانات

وإستعداداتها وميولها ، سواء كانت برية أو بحرية ، ثم تقارنها ببعضها فابدأ بالطيور مثلا ، ودقق النظر في جميع أنواعها ، وفي اختلاف ريشها ورقتها ، تجد أنك لا تصادف نوعا منها الا وفي البحر نظيره)) ، ثم علل الانتقال من الماء الى الهواء مع أنه غير ممكن بالنسبة للحيوان المائي علل ذلك بأن هذا الانتقال لا يتنافى مع العلوم الطبيعية ، فان الهواء الذي يحيط بالكرة الأرضية يحتوي على كثير من الجزيئات المائية ، وليس الماء الا هواء فيه جزيئات مائية أكبر حجما وأكثر رطوبة ، فهو اذن أثقل من هذا السيل العلوي الذي الصقنا به اسم الهواء .

ثم علل كيفية الانتقال بأنه يحتمل أن طائفة من هذه الحيوانات كانت في قاع بحيرة من البحيرات ، فأخذ ماء هذه البحيرة يجف شيئا فشيئا ، فوجدت هذه الكائنات نفسها مجبرة على المعيشة في الجو الهوائي ، أو يحتمل أن تكون قد حاولت القفز من تلك البحيرة الى البحر المجاور لها ، هربا من حيوان مفترس ، فسقطت في غابة ، فهمت بالرجوع الى مستقرها الأول فأجهدت نفسها من القفز ، فلم تستطع أن تدركه ، ولكنها تحصلت بهذه المحاولة على خاصية الطيران ، وفي هذه الحالة تشققت عواماتها من الجفاف الذي أحرق بها لفقد الماء ، ثم انها تكون قد وجدت في تلك الغابة ما يغذيها من المواد فلم تمت ، بل بقيت حية ، ولكن الأنايب المحركة لعواماتها انفصلت ، واكتسبت ريشها فكبر هذا الريش حتى استحال الى أجنحة . . . ؟ وأما الأجنحة الصغيرة التي كانت تحت بطونها ، والتي كانت تساعد على السباحة في البحر ، فقد استحالت الى أقدام سمحت لها بالمشي على الأرض ، وحصل أيضا تغيير سوى ما سبق في سائر اجزاء أجسامها وذلك ظهرت بهذا المظهر الذي عليه الطيور كلها الآن . . . ؟؟

أما من جهة الحيوانات المنسحبة على بطنها والماشية على الأرض فان تصور وفهم الكيفية التي انتقلت بها من البحر الى البر فسهل جدا .

أنك ترى بعينك أن الثعابين والسلاحف تستطيع المعيشة في الماء والهواء على السواء .

أما ذوات الأربع فأننا لا نقول فقط بأن في البحر ما يشبه سائر أنواعها جسما وتركيبا ، بل نقول : أن منها ما يستطيع المعيشة في كل العنصرين بغاية السهولة

هذه هي النظرية العجيبة التي أتى بها ماييه في القرن التاسع عشر ، رغم ما بها من الضعف الذي كاد يوصل صاحبها لدرجة الهذيان أو السفسطة ورغم الانتقادات التي وجهت لها من كبار العلماء المعاصرين لماييه ، لم نجد أن واحد من العلماء ، أنكر على ماييه نظريته ، رغم أنها لم تشهد ، ولم تجرب و إنما بناها على المقياس الرابع السابق الذكر ، بل وجدنا العلماء يقرونه على طريقته التي استنتج بها هذه النظرية من خلال ملاحظاته ومشاهداته ، لأنهم يقرون هذا المقياس الاستدلالي ، وإنما خالفوه في مدى صحتها وثبوتها لعدم وجود القرينة المؤيدة التي ترجح تفسيره لبعض الظواهر على تفسير غيره لهذه الظواهر .

ولأقرار العلماء لمبدأ الاستنباط والاستنتاج الذي ذكرناه أقر العلماء نظرية دارون في الأنواع الأرضية ، وهي نظرية التطور العضوي ، أو النشوء والارتقاء ، و خلاصة هذه النظرية .

نظرية دارون :

أولا : أن دراسة جميع الحيوانات تؤكد أنها تضم انواعا أعلى وأخرى أدنى ، ابتداء من حيوانات تتألف من خلية واحدة الى حيوانات تتألف من ملايين الخلايا ، كما أن هناك اختلافا كبيرا بين هذه الحيوانات من حيث صلاحيتها وكفاءاتها و رقيها .

ثانيا : لو قارنت معلومات هذه المشاهدة الإبتدائية مع الحقائق التي خرجت من جوف الأرض ، فسترى أن هناك ترتيبا ارتقائيا بحسب الزمن ، فالحيوانات التي وجدت على ظهر الأرض قبل ملايين السنين ، والتي احتفظ بطن الأرض بعظامها المتحجرة - تدلنا على أن حيوانات العصر القديم ، كانت بسيطة التركيب ، ثم ظهرت أنواع أرقى وأكثر تعقيدا على مر الزمن ، ومعنى هذا أن الأنواع كلها لم تظهر

للوجود في وقت واحد ، وأما ظهرت الأنواع البسيطة أولا ، ثم ظهرت بعد ذلك الأنواع الأكثر رقا وتعقيدا .

ثالثا : هناك تشابه كبير في النظام الجسماني لكل الحيوانات ، بالرغم من كل الاختلافات النوعية ، فالطير يشبه السمك ، وهيكـل الحصان يشبه جسم الإنسان ، وبناء على هذا يحتمل أن تكون كل الأجسام الحية منتهية الى أسرة واحدة ، وأن الجد الأعلى لكل الكائنات الحية جد واحد .

وأما كيفية خروج نوع من نوع آخر ، فيجيب عليه الداروينيون بأنه خاضع لقانون الوراثة وذلك أن الصفات العرضية التي تحدث في الأبناء بواسطة اختلاف الأحوال المعيشية ، تنتقل الى الأبناء ، فينشأ الأبناء مختلفين فيما بينهم ، كما نشاهد ذلك في أبناء الأم الواحدة في أي حيوان من الحيوانات ، فانهم ليسوا متشابهين ، بل ربما كانت بينهم فروق كبيرة ، ولا تزال هذه الاختلافات العرضية الى اختلافات تقوى على مر الأجيال والقرون حتى تستحيل هذه الاختلافات العرضية الى اختلافات جوهرية توهم الناظر لها أنها اختلافات نوعية في أصل الخلقة ، وهي في الحقيقة اختلافات بسيطة في مبدئها توالى عليها الحقب حتى ازدادت تأسلا في الكائن الحي ، ونمت فيه فأدت الى مباينة الأصل الذي نشأ منه تمام المباينة ، حتى أن الناظر لهما يظنهما من نوعين مختلفين ، وهما من نوع واحد ، كما نرى ذلك بين الحصان والحمار ، فانهما بناء على هذا من نوع واحد ، وإنما اختلف الحمار عن الحصان هذا الاختلاف تبعا لمقتضيات الوسط الذي عاش فيه الحمار والحصان (١) .

وقد تكبر هذه الفروق خلال ملايين السنين حتى أن الشياه ذات الأعناق القصيرة تتحول الى الزراف ذات الأعناق الطويلة (٢) .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٤ / ٣١ .

(٢) الدين في مواجهة العلم ص / ١١ .

وانما يتم ذلك وفقا لقانون الانتخاب الطبيعي - الذي يعتبر من أركان نظرية دارون .

ولكن ((ما هو المقياس الذي استند اليه دارون في إثبات نظريته التي شرح بها أصل الأنواع الأرضية وبين فيها أن القرد هو الجد الأعلى للإنسان ، وأن الكلب هو الجد الأعلى للحصان ؟ وان الحياة نشأة من مادة لاحياة فيها . هل شاهد دارون والدرونيون تجربة في معمل من المعامل تثبت لهم أن القرد هو الجد الأعلى للإنسان ، وتريهم كيف خرج الانسان من القرد ؟ الجواب لا ، اذن فهل رأى دارون أو الدارونيون جزءا من هذه الحقيقة في تجربة من التجارب ان لم ير الحقيقة كاملة ؟ الجواب أيضا ، لا ، هل يستطيعون أن يثبتوا حقيقة التطور والارتقاء كما يثبتون حقيقة الاليكترون بالضغط على الزر واضاءة المصباح الكهربائي أو تحرك المعمل ؟ الجواب أيضا لا . .

اذن فهم قد استندوا الى قانون الاستنباط والاستنتاج من خلال بعض المشاهدات مع وجود بعض القرائن ، وأثبتوا من خلال هذا نظريتهم لانه من المستحيل أن يثبت دارون أو أتباعه كيف توجد الحياة من مادة لا حياة فيها ، أو كيف يخرج الانسان من القرد .

فهو بنى نظريته على أساس التشابه الموجود في مختلف الانواع ، وحدث الفوارق في أبناء الأم الواحدة ، وبناء على ذلك فقد حكم بأن هذه الأنواع المختلفة التي لم توجد دفعة واحدة ، والتي تباينت ببساطتها وتعقيدها ، حكم بأنها قد خرج بعضها من البعض ، وما زالت تترقى الى أن وجد أرفع نوع منها وهو الانسان .

فهو اذن لم ير كيف خرج الانسان ، ولم يجربه ، وانما هو افتراض محض وتخمين وليس هناك أي دليل صحيح على أن هذه الحيوانات لها صلة بالتي كانت قبلها وكان أبسط منها ، وأنها انما تطورت مع الزمن الى أن صارت على صورتها الحالية .

رواج نظرية دارون :

من أجل هذا أصبحت هذه النظرية القائمة على الافتراض المحض أصبحت هدفا للطعن والانتقاد . وها هوسير آرثر كيث ، وهو من أكبر المدافعين عن هذه النظرية يقول : ((ان نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى اثباتها بالبرهان (١))) كما عرفت لها احدى الموسوعات العلمية ((بأنها نظرية قائمة على تفسير بدون براهين))(٢).

إلا أنه على الرغم من هذا النقد القاسي الذي وجه إلى الدارونية من قبل كثير من العلماء حتى أصبحت نظرية لاقيمة لها في ميدان العلوم – على الرغم من هذا نجد العلماء المعاصرين يقبلونها ، ويرضون بها ، على أنها هي التي تفسر لهم أصل الحياة ونشأتها .

فها هو لى يقول : ((ظلت نظرية الارتقاء تحصل على تأييد متزايد ، يوما بعد يوم ، بعد دارون ، حتى أنه لم يبق لدى المفكرين والعلماء شك في أن هذه هي الوسيلة المنطقية الوحيدة التي تستطيع أن تفسر عملية الخلق وتشرحها)) . ويقول سمبسن : ((ان نظرية الارتقاء حقيقة ثابتة أخيرا وكليا ، وليست بقياس ، أو فرش بديل صيغ للبحث العلمي)) .

ويقول ماندير : ((لقد ثبت صدق هذه النظرية ، حتى أننا نستطيع أن نعتبرها أقرب شيء إلى الحقيقة)) .

فنحن نرى أن هؤلاء العلماء يقبلون النظرية ، ويقحمونها في شتى مجالات العلم ، ويبنون عليها كثيرا من بحوثهم العلمية ، مع أنها نظرية قائمة على الفرض والتخمين والاستنباط .

(١) الاسلام يتحدى ص / ٥٨ .

(٢) الدين ص / ١٢ .

وبناء على هذا نستطيع أن نقول : ان العقل الحديث لا يحصر دائرة العلم في تلك الوقائع التي يمكننا تجربتها مباشرة ، وانما يعتبر أن أية قرينة منطقية تستند إلى تجارب ومشاهدات غير مباشرة يمكنها أيضا أن تصبح حقيقة علمية بنفس درجة الحقائق العلمية التي يتمكن من مشاهدتها مباشرة .

ونحن هنا لانريد أن نبحث عن صحة أو خطأ نظرية النشوء والارتقاء ، فلسنا بهذا الصدد الآن ، وانما نريد أن نثبت بالبرهان القاطع ما هدفنا اليه من أن العقل الحديث يقبل هذا المعيار الاستدلالي القائم على الاستنباط .

وبناء على ذلك – فما الذي جعل نظرية دارون في أصل الأنواع مقبولة ، وتفسير الدين لأصل الحياة باطلا ، مع أن تفسير الدين أوضح وأتم .

ماجاز لدارون يجوز للمؤمن

فاذا جاز لدارون أن يقول : ان التشابه بين أجسام الحيوانات الراقية والبسيطة يدفعه للإيمان بأن جدها الأعلى واحد ، الا يجوز لعالم الدين أن يقول : أن التشابه الذي رأيناه بين أجسام جميع الحيوانات البسيطة والمعقدة على تتابع الايام والاجيال والأحقاب يدفعني للإيمان بأن خالق هذه الكائنات الحية واحد ، بدلا من أن يقول : ان جدها الا على واحد . . ؟ ؟

ان كلا الرجلين استند إلى المشاهدة والاستنباط ، الا أن استنباط دارون بعيد كل البعد عن العقل ، والقوانين العلمية ، لما هو معروف في نظرية من الثغرات التي لم ولم ولن تسد ، بينما نجد استنباط عالم الدين قائما على قانون العقل ، الا وهو أن التشابه الكبير القائم بين هذه المخلوقات يدل على أن صانعها واحد . .
ونحن الان في جدال موضوعي ، ولا نريد أن نتحكم ، فكل منا يرى من خلال وجهة نظره . .

ولكن الذي نريده ونصر عليه أن لا يتعنت فلاسفة الالحاد ، فيمنعونا مما أباحوه لأنفسهم .

فكما أنهم رضوا بمبدأ الاستنباط يجب عليهم أن يسمحوا لنا باستعمال نفس المبدأ ، وعند ذلك نستطيع أن نقول : أن قواعد الدين حقائق علمية بمعيار العقل الحديث . كما أنها كانت كذلك بمعيار العقل القديم . .

تعصب الفكر الالهادي :

إلا أننا مع هذا نجد فلاسفة الالحاد يصرون على رفض الدين مع قبولهم لمعاييره الاستدلالية ، وأما لماذا يرفضون الدين على أن تفسيره لأصل الحياة أوضح من تفسير دارون . فذلك شيء نترك الكلام عنه للسير آرثر كيث اذ يقول ((إن نظرية النشوء والارتقاء غير ثابتة علميا ، ولا سبيل إلى اثباتها بالبرهان ، ونحن لا نؤمن بها إلا لأن الخيار الوحيد بعد ذلك هو الايمان بالخلق المباشر ، وهذا ما لا يمكن حتى التفكير فيه))^(١).

ويوضح السير جيمس جينز في كتابه عالم الاسرار هذه الحقيقة فيقول : ((ان في عقولنا تعصبا يرجح التفسير المادي للحقائق))^(٢).

كما يؤكد الدكتور هيلز هذه المعاني فيقول ((انني سأكون آخر من يدعي أننا نحن العلماء أقل الناس عرضه للتعصب بالنسبة للمثقفين الآخرين))^(٣).

اذن فالامر ليس أمر صحة المبدأ أو عدمه . وإنما هو أمر تعصب أعمى يدفع فلاسفة الالحاد في العصر الحاضر لترجيح أمر على أمر آخر ، كما رجحوا تفسير دارون ، لا أصل الانواع بالنشوء والارتقاء على تفسير الدين لها بالخلق المباشر ، مع أن طريقة الاستدلال واحدة ، بل هي في جانب الدين أرجح .

(١) الإسلام ٥٨ .

(٢) ص / ٥٧ .

(٣) الدين ص / ٤٥ .

وإذا أردنا أن نعرف المزيد عن هذا التعتن الذي أصيب به العقل الحديث فلنستمع إلى ويتكر شامبرز في كتابه ((الشهادة)) وهو يذكر حادثا كان من الممكن ان يصبح نقطة تحول في حياته فيقول : أنه بينما كان ينظر إلى ابنته الصغيرة استلقت اذناها نظره ، فأخذ يفكر في انه من المستحيل أن يوجد شيء معقد ودقيق كهذه الاذن بمحض اتفاق وصدفه ، بل لابد أنه وجد نتيجة ارادة مدبرة ، ولكنه طرد هذه الوسوسة عن قلبه حتى لا يضطر للايمان بالله منطقيا ، لأن فكره لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة)) .

ويقول الدكتور تامس ديود باركس بعد ذكر هذا الحادث : ((انني اعرف عددا كبيرا من أساتذتي في الجامعة ، ومن رفقائي العلماء الذين تعرضوا مرارا لمثل هذه المشاعر وهو يقومون بعلميات كيميائية وطبيعية في المعمل (١) .

كما يقول أحد العلماء الآخرين : ((ان كون العقيدة الالهية معقولة وكون انكار الاله سفسط ، لا يكفي ليختار الانسان جانب العقيدة الالهية فالناس يظنون أن الايمان بالله سوف يقضي على حريتهم ، تلك الحرية العقلية التي استعبدت عقول العلماء واستهون قلوبهم ، فأية فكرة عن تحديد هذه الحرية مثيرة للوحشة عندهم (٢) .

وليس هذا فقط ، بل هناك أسباب أخرى سوى العصبية والتعتن والجري وراء الاهواء هناك اسباب أخرى دفعت كثيرا من الأفراد والمؤسسات لتبني الاحاد ولنترك الكلام عليها لعالم الفسيولوجيا - الكيمياء الحيوية د. وولتر لندبرج اذا يقول :

(١) الاسلام ص / ٥٨ - ٥٩ .

(٢) الله يتجلى في عصر العلم ص / ١١ .

((ويرجع انكار وجود الله في بعض الأحيان إلى ما تتبعه بعض الجماعات أو المنظمات الالحادية ، أو الدولة ، من سياسة معينة ترمي إلى شيوع الالحاد ، ومحاربة الايمان بالله ، بسبب تعارض هذه العقيدة مع صالح هذه الجماعات أو مبادئها)) .

هذه هي الحقيقة التي يجب أن يعرفها العالم ازاء الدين والعلم ، عصبية عمياء ، ومصالح مادية وسياسية ، هي التي دفعت فلاسفة الالحاد إلى ما دعتهم اليه ، من الإعراض عن الدين ، وانكار الخالق ، والزعم بأن العلم يناقض الدين ، مستغلين المكتشفات الحديثة ، والقوانين العلمية التي وقفوا عليها أسوأ استغلال . بل ذهب بعض فلاسفة الالحاد المعاصر إلى درجة أبعد من هذا ، ألا وهي إتباع المغالطات من أجل دعم الحادهم ونقدهم للفكر الديني ، فالمهم عندهم ابطال الدين ، وليس الحقيقة العلمية التي يتباكون عليها .

اتجاه الفكر الالحادي إلى المغالطة :

فها هو جان بول سارتر ، الفيلسوف الفرنسي الملحد ، يعلن حينما زار مصر في الستينات - يعلن في جامعة القاهرة أنه ملحد ، وأنه لا ضرورة للدين ، ويستدل على ذلك بمقياس علمي وراء المقاييس العلمية الأربعة التي ذكرناها ، ولم يقل به عاقل من عقلاء الأرض ، يستند به إلى جزئية معينة ، لا تدل إلا على نفسها ، وليست لها أية علاقة بغيرها ، ومن ثم يجعلها قانونا علميا يبطل به الدين فيقول : ((أنه فيلسوف ملحد ، وأنه لا ضرورة للدين ، لأنه يعيش مع صديقه منذ خمسة وعشرين عاما بدون عقد زواج شرعي ، وأنه يشعر بالسعادة ، ولذلك فهو ليس بحاجة للدين)) .

ليس دليلا على عدم الوجود . . فمن زعم انه لا يوجد في الفضاء قمر صناعي لانه لم ير بعينه أو بمنظاره ، فكلامه هذا باطل ، لانه اذا لم يتمكن من رؤيته فليس معنى هذا أن القمر غير موجود ، فربما رآه غيره ، ولكنه يدل على قصور الناظر والباحث عن القمر .

وكان بإمكان كاكارين ومروجي كلامه أن يستدلوا بهذا المنطق فيما لو قلنا لهم أن الله كملوك الأرض ، يجلس في الدائرة التي طاف حولها رائد الفضاء ، على أننا لو قلنا له هذا لما كان في كلامه دليل على عدم وجوده ، لانه ذا عجز هو عن رؤيته لقصور وسيلته ، لما كان عجزه هذا دليلا على عدم الوجود ، فقد يراه غيره . . وهو موجود .

الا اننا لم نقل هذا ، ولم نزعمه والله لا يجري عليه الزمان ، ولا يحده المكان ، ولذلك كان بحث كاكارين عبثا ، وكلامه ساقطا ، لانه بعيد كل البعد عن عقيدة الألوهية .

ولكن هل قال كاكارين هذا الكلام ، وهو مؤمن به ، أظن أنه ما قاله الا مغالطة وايهاما ، والا فهو يعلم مدى سعة هذا الكون الذي سبح فيه ، والذي يعجز هو وأمثاله ، لا عن التفتيش فيه عن الله ، بل يعجز عن تصوره وتصور سعته ، ان كاكارين يعلم أنه يغالط ، لانه ما جاب كل الكون . . . ومن ثم فليس من حقه أن يقول هذا الكلام .

هذه أمثلة بسيطة عن المحاولات الخاطئة التي سلكها اللاحاد المعاصر من أجل الوصول إلى غاياتهم ، تدلنا دلالة قاطعة على أن الامر ليس أمر دين وعلم وانما هو أمر عصبية وعناد وتحكم .

نظرية دارون على فرض صحتها لا تؤدي للالحاد :

وكما أنهم استعملوا القوانين العلمية التي وقفوا عليها ، والتجارب التي شاهدوها ، كما أنهم استعملوها استعمالا خاطئا للاستدلال على بطلان الألوهية والدين ، كما مر معنا في حلقات هذا البحث ، كذلك استعملوا هنا النظريات التي استنبطوها بالقانون الرابع ، وذهبوا يهللون ويكبرون ، ويزعمون أنهم عثروا على سر الحياة ، وأنه لا داعي للقول بوجود الله .

فعندما استنبط دارون نظريته في أصل الأنواع الأرضية ، وانها قائمة على الشوء والارتقاء ، وأن كل الحيوانات تطورت من الخلية الحية الواحدة ، حتى وصلت إلى ذروة رقيها في الانسان ، ذهب فلاسفة الالحاد كعادتهم ليعلموا انه لا اله يحكم هذا الكون ويدبره ، وانما هو الارتقاء والاصطفاء الطبيعي ، حسب هذه النظرية المزعومة .

ولكن . . بغض النظر عن صحة النظرية أو عدمه ، على أننا نؤمن ببطلانها عقلا وشرعا ، وبغض النظر عن هذا ، هل تفيد هذه النظرية هذا الذي ذهبوا اليه من انكار الخالق وبطلان الدين ؟!

أو ما تساءل العقل الحديث من أين أتت الخلية الحية الأولى ، والعقل البشري لا يؤمن بالصدفة في احتمال وجودها لاستحالتها ؟
أو ما تساءل العقل البشري لماذا يعمل الجميع باتجاه نتيجة واحدة ، من أجل الوصول إلى العقل المدرك .

واذا فرضنا صدق التكهّن بأن الخلية الأولى وجدت صدفة ، أفيجوز لعقل أن يؤمن بأن هذه الصدفة تتكرر ملايين ملايين المرات وبنظام واحد ، واتجاه واحد ، ولنتيجة واحدة ؟

ان العقل ليرفض هذا رفضا قاطعا ما لم يكن هناك موجة لهذه العناصر نحو تلك النتيجة . . . ؟

ولذلك وجدنا دارون نفسه يعترف بهذا ، ويقول : ان نظريته لم تأت لتهدم الأديان والعقائد ، وانما لتفسر بعض المظاهر ، وانه يؤمن بوجود قوة مدبرة وراء هذه العناصر تسيّرهما نحو الغاية والهدف ألا وهي قوة الله ، فقد قال عند كلامه على نشوء العين وتدرجها في الكمال قال :

((يجب التسليم بأنه توجد قوة مدبرة مظهرها الانتخاب الطبيعي ، تراقب دائما ما يحدث من العوارض على الطبقات الشفافة للعين)) .

فكلامه واضح في أنه لا ينفي بنظريته الألوهية ، بل يثبتها ، أو يجوز لمن جاء بعده أن يستغل هذه النظرية من أجل نفي الخالق ، وصاحبها يثبت بها وجوده ؟ وليس دارون فقط هو الذي اعترف بوجود الخالق من خلال نظريته ، بل تابعه عليه كثير من أتباعه وأنصاره ، كالعلامة الفزيولوجي جوفروا سانتيلير في كتابه أصول الفلسفة الزولوجية اذ يقول :

((ان تسلسل الأنواع مظهر من أفخم المظاهر للقوة الخالقة ، وسبب لزيادة الاعجاب بها وشكرها ، وحبها)) .

كما يقول العلامة الفرنسي كاميل فلامريون في كتابه (الله في الطبيعة)^(١) : ((ان الزعم بأن الخلية تتكون بذاتها وتترقى بطبيعتها بقيامها على اتجاه ثابت ، نحو نتائج متدرجة في الكمال ، يعتبر كنصف اعتراف بأن هذه الطبيعة مقودة نحو الكمال بسبب عاقل .

كيف يعقل أن الطبيعة الميتة تفكر في أن تترقى على التعاقب في شكل نباتي ثم

(١) ص / ٤٣٥ عن دائرة معارف القرن العشرين ٨ / ٥٠٣ - ٥٠٤ .

حيواني ثم إنساني ، وأن تكون هذه الأعضاء التي تؤلف الكائن الحي ، وتكون كفوا لحفظ الحياة في خلال القرون ، وأن تبني هذه الأجهزة التي بها الكائن الحي يكون في اتصال مستمر بالأشياء المغايرة له ؟

بأي اتفاق مدهش تكونت هذه الأعضاء رويدا رويدا لأجل توصيل المؤثرات الخارجية إلى الجسم ، ثم ارتبطت هذه الأعضاء بالمخ المدرك الذي هو وحده يحكم ويفهم ؟ . . .

إلى أن قال : " أن فوق كل هذه الإستحالات الممكنة للكائنات ناموسا لا يتحول ، يقود ترقى الطبيعة منذ بدء تكون الأنواع الأولية . . أن العقل الخالق المدبر الذي نسميه " الله " هو أذن القانون الأول الأبدي والقوى الصميمة العامة المؤلفة للوحدة الحية للعالم " .

فهذه اعترافات المؤمنين بالنظرية ، يجهدون من أجل إثبات وجود الله من خلالها ، فما لأولئك الذين يريدون أن يستغلوا العلم أسوأ استغلال وأقبحه بعد أن قال صاحب النظرية ومؤيدوه أنهم يؤمنون بوجود الله من خلالها .

ونحن لا نذكر هذه النظرية وما قيل عنها للدلالة على صحتها ، فقد ذكرت أننا نرفضها علما وشرعا كما رفضها العلم الحديث ، ألا أننا نسوق هذا لنبين أنه على فرض صحتها في عقول المدافعين عنها ، على فرض هذا هي لا تؤدي إلى جحود الخالق ونفيه كما يزعم مستغلوا العلوم ، وفلاسفة الألحاد .

إن ما ذكرناه عن نظرية دارون من أنها - على فرض صحتها - لا تؤدي إلى النتيجة التي وصلوا إليها وهي نفي الألوهية - إن ما ذكرناه عن هذه النظرية يمكن أن نذكره جوابا على كل نظرية أو قانون علمي يمكن أن يطرح في هذا الموضوع .

التحكم في تعيين الحقائق :

على أن كل ما توصل اليه العقل الحديث من نظريات وقوانين من خلال الملاحظة والاستنتاج ، انما هي تفسيرات لما يجري أمام العلماء من المشاهد والحركات والتفاعلات ، وليست هي الحقيقة في الواقع ونفس الأمر ، وأما الحقيقة فلم يستطع العلماء أن يضعوا أيديهم عليها يقيناً .

ولذلك كان من الممكن أن تتغير هذه النظريات الشارحة ، او القوانين المستنبطة بتغيير وسائل الملاحظة والملاحظة وتطورها ، بل هذا هو الواقع ، كما سنبينه من خلال المثال الآتي :

حقيقة المادة :

لقد حار العلماء في معرفة حقيقة المادة التي تتركب منها الأشياء المحسوسة في الكون .

فقد تبنى العلماء لمئات السنين نظرية الفيلسوف اليوناني ديمو كريت من أن الأجسام مكونة من ذرات صغيرة جداً لا تقبل الانقسام ، وأنها متأثرة بقوتين ، قوة تجذب بعضها إلى بعض ، وقوة تميل إلى تنفير بعضها من بعض ، ففي الجسم الصلب تفوق قوة الجذب قوة الدفع ، وفي الجسم السائل تفوق قوة الدفع .

وقالوا بعد تهذيب هذه النظرية : إن كل ما في الكون ينقسم إلى مادة وقوة ، فالذهب والنحاس والخشب مثلاً ، مادة ، والحركة ، والحرارة ، والكهرباء ، قوة . والقوة والمادة مختلفتان ، ولكنهما متلازمتان ، فلا قوة بلا مادة ، ولا مادة بلا قوة .

والقوة والمادة مختلفتان ، ولكنهما متلازمتان ، فلا قوة بلا مادة ، ولا مادة بلا قوة ، وان كلا منهما أزلي أبدي ، أي غير قابل للفناء . وان الأجسام لا تختلف في حقيقتها ، وانما في ترتيب ذراتها .

وأما القوة فهي مظهر من مظاهر التموجات التي يحدثها الجسم في الأثير ،
فاذا تموج الأثير بسرعة معينة أنتج الصوت ، وإذا تموج بسرعة أخرى أنتج
الكهرباء ، وهكذا . .

وما دامت المادة والقوة أزليتان . . اذن فلا موجد لهما . . فلا داعي للقول
بوجود الخالق في زعمهم . .
ولكن هل هذا الذي توصلوا اليه هو الحقيقة حتى يلزم منا ما ادعوه من نفي
الالوهية ؟

الواقع : لا .

لقد قامت نظريات علمية جديدة في المجامع العلمية ، تبطل هذه النظرية وكان
ذلك على أثر اكتشاف الراديوم وبعض العناصر الأخرى .
وذلك أنه شوهد أن من خواص هذه العناصر أنه ينبعث منها على الدوام حرارة
وضوء وكهرباء ، فمن أين تصدر هذه القوة ؟

لقد لاحظ العلماء بعد تجارب دقيقة ومضبوطة أن مادة تلك العناصر تنقص
شيئا فشيئا ، وأن القوة التي تتحول منها في ظروف خاصة إلى مادة أخرى من
قبيل الراديوم ، تسمى هليوم ، فاستنتجوا من ذلك أن مواد هذا النوع من الأجسام
تتحول إلى قوة ، وأن القوة قد تتحول إلى مادة .

ثم وسعوا مدى هذه النظرية فقالوا : ان جميع الأجسام تشع على الأجسام
ضوءا ، وكهرباء ، وحرارة ، مثل الراديوم ، ولكن ببطء شديد جدا ، بحيث لا
يمكن مشاهدته بحواسنا ، ولا بالآلات ، ولكن يمكن اظهاره تحت تأثير المغناطيس

مما اضطر العلماء إلى الأعراض عن القول بعدم تلاشي المادة والقوة وذهبوا
إلى القول بتلاشيها .

وقالوا : أن الذرة مركبة من بروتون والكترون ، وأن الألكترون يدور حول البروتون بحركة منتظمة هائلة السرعة .

وليس البروتون أو الالكترون هما النهاية التي يقف عندها انقسام المادة ، بل انها تنقسم إلى دقائق أصغر منها حجما تنتج من تحطم الذرة ، مما يكون الحرارة ، أو الكهرباء ، أو الضوء . ولهذا لم يعترفوا لها بمادتها ، بل اعتبروها قوة ، أو أن كل واحدة منها كمية من الأثير تدور حول مركزها .

والخلاصة أن المادة والقوة شيء واحد يتحول كل منهما إلى الآخر ، وإن المادة لا وجود لها ، وأن ما في الكون انما هو القوة فقط .

والذي أريده من سياق هذا الكلام عن المادة هو أن ما يتوصل اليه العلم الحديث من النظريات أنما هو شرح لظاهرة معينة ، وليس كشافاً للحقيقة ، وإلا لما كان قابلاً للتغيير .

ومادام الأمر كذلك فليس لانسان أن يتحكم ويقول : انني عرفت الحقيقة وكشفت السر ، فلا داعي لأي قول آخر يخالف قولي أوكشفي .

لقد بنوا على قولهم : ان المادة أزلية أبدية أنه لا ضرورة للقول بوجود إله أوجدها .

الا أن المشاهدات الجديدة ، والمعلومات المتطورة أثبتت بطلان هذا من وجهين :

الوجه الأول : ما ذكرناه من تحطم الذرة وتحولها إلى طاقة أو قوة ، أي أنها قابلة للفناء ، وكل ما كان قابلاً للفناء فليس بقديم ، ولذلك لا بد له من موجد .

والوجه الثاني : هو القانون الثاني من قوانين الديناميكا الحرارية الذي يثبت بكل قطعية خطأ القول بأزلية الكون ، وذلك لأن العلوم تثبت بكل وضوح أنه يوجد في

هذا الكون انتقال حراري مستمر من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة ، ولا يمكن أن يحدث العكس بقوة ذاتية ، بحيث تعود الحرارة فترتد من الأجسام الباردة إلى الأجسام الحارة .

ومعنى هذا أن الكون يتجه إلى حالة تتساوى فيها حرارة جميع الأجسام وينضب فيها معين الطاقة ، وعند ذلك تتوقف العمليات الكيماوية والطبيعية ، وتندثر الحياة .

ولما كانت الحياة لا تزال قائمة ، والعمليات الكيماوية لا تزال مستمرة ، فإننا نستنتج بكل ثقة أن هذا الكون ليس أزليا ، وإنما هو حادث ، والا لكان من المفروض أنه قد انقرض منذ أمد بعيد ، ومادام حادثا ، فلا بد من محدث أوجده على هذه الحالة (١).

ولقد اعترف برتراند رسل بهذه الحقيقة فقال : ((ان نشأة الانسان وحياته وآماله ومخاوفه وعواطفه وعقائده وحواسه ، وبطولته ، لا يمكن أن تحول بينه وبين الموت ، وجميع ما قام به عبر الأجيال مصيره الفناء المرتبط بنهاية المجموعة الشمسية ، إن جميع ما حققه الانسان من نصر ، وما بناه من مدنية ، سيدفن تحت أنقاض هذا الكون ، وان هذه الأمور جميعا حقائق لا تقوى فلسفة من الفلسفات على إنكارها)) (٢).

اذن فكل ما أمكن الوصول اليه من نظريات إنما هو شرح لما يجري في هذا الكون وليس إدراكا للحقيقة ، ولذلك كان قابلا للتبدل والتغير .

يقول وليم كروكس الكيماوي الانجليزي الشهير في خطبة له في المؤتمر العلمي المنعقد في برلين سنة ١٩٠٣ (٣) :

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٦ و ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص / ٥٢ .

(٣) دائرة معارف وجدي ٨ / ٥٠٠ .

" لقد ظهرت في القرن التاسع عشر نظريتان على ذرات المادة ، فالكهرباء والأثير وهي نظريتنا الحالية على تركيب المادة يمكن أن تظهر لنا مرضية ، ولكنها إلى أي حال ستؤول يا ترى في آخر القرن العشرين ؟ ألم تعلمنا الضرورة هذا الدرس ، وهو أن مباحثنا ليست إلا ذات صبغة وقتية ؟ !

وبقول أبرسولد : " لقد كنت عند بدء دراستي للعلوم شديد الإعجاب بالتفكير الإنساني ، وبقوة الأساليب العلمية إلى درجة جعلتني أثق كل الثقة بقدرة العلوم على حل أية مشكلة في هذا الكون .

وعندما تزايد علمي ومعرفتي بالأشياء من الذرة إلى الأجرام السماوية تبين لي أن هناك كثير من الأشياء التي لم تستطع العلوم أن تجد لها تفسيراً ، أو تكشف النقاب عن أسرارها .

وبرغم أن العلوم تستطيع أن تقدم لنا نظريات قيمة عن السدم والنجوم والذرات وغيرها من العوالم الأخرى ، إلا أنها لا تستطيع أن تبين لنا مصدر المادة والطاقة التي استخدمت في بناء الكون ، أو لماذا اتخذ الكون صورته الحالية ، والحق أن التفكير المستقيم والاستدلال السليم يفرض على عقولنا فكرة وجود الله " (١)

إلى أن قال اجوست سباتييه في كتابه " فلسفة الأديان " :

" إن العلماء أول المعترفين في كل فرع من فروع العلم بأنهم لم يدركوا منه إلا جزءاً محدوداً ، وأن أكثرهم تواضعاً هم أكثرهم علماً ، على أنهم كلهم يعترفون بأن ما حصلوه للآن من الاكتشافات وما درسوه من هذا الجزء اليسير من الطبيعة ليس إلا عدماً بالنسبة لما يجهلون (٢)

إذن فالبحث في تفسير مظاهر الطبيعة والمادة والكون لا زال بحثاً ساذجاً ،

(١) الله يتجلى ص / ٧٦ - ٣٧

(٢) دائرة معارف وجدي ٨ / ٥٠١

يخضع كل يوم للتبدل والتغير ، بتبدل وسائل العلم والمعرفة وتطورهما ، وليس إدراكا للحقيقة في الواقع ونفس الأمر .

وبناء على ذلك ، فإننا نرفض رفضا قاطعا ربط فلاسفة الالحاد بين هذه النظريات المتطورة وبين الألوهية والدين ، ولا سيما أنها قد فشلت في تفسير مظاهر الكون والطبيعة تفسيراً حقيقياً . .

إلا أن العلماء قد أعطوا مثل هذه النظريات قوة الأمور المبنية على المشاهدة ، ماداموا لم يصلوا إلى نظرية أفضل منها .

فإذا جاز للعقل الحديث أن يقبل تفسير هذه النظريات لمظاهر الطبيعة ، مع أنها متطورة ، ومتغيرة ، وليست وصولاً إلى الحقيقة ، وإنما هي أمور ظاهرة أثبت الواقع فشلها في كثير من الحالات ، بأعتراف العلماء ، أفلا يجوز للمؤمن أن يقبل تفسير الدين لمظاهر الطبيعة مع أنه تفسير ثابت ، موافق للعقل والمنطق ، لم يستطع إنسان أن يثبت تخلفه في حالة من الحالات ، ولن يستطع إلى ذلك سبيلاً ؟

بلى يستطيع ، ليس بالعصبية التي جرى عليها فلاسفة الالحاد ، وإنما بالحق والمنطق ، وبنفس الأسلوب الذي يؤمن به العقل الحديث .

طريق الإستدلال على وجود الله

لقد عرفنا في الفقرات السابقة بطلان دعوى فلاسفة الإلحاد في تناقض العلم مع الدين ، بل عرفنا أن الدين أكبر دعمة للعلم ، والعلم أكبر شاهد على الدين .
كما عرفنا أن العقل الحديث لا يحصر معارفه في المشاهدات والمجربات ، وإنما يقبل ماكان ناتجا عن استنباط واستنتاج مع وجود القرنين ، ويعطى النتائج التي يصل اليها عن هذا الطريق نفس القوة التي يعطيها للحقيقة العلمية التي لم يصل اليها عن طريق التجربة المباشرة أو المشاهدة .

وبناء على ذلك ، فإننا سوف نسير على هذا المنهاج ، لا نعدوه ، لنثبت بنفس الأسلوب الذي استعمله فلاسفة الإلحاد ، لنثبت بنفس الأسلوب وجود الله ، وصدق الدين وضرورته .

وسوف يكون بحثنا ونظرنا في الآيات الكونية التي نظر فيها العلم الحديث وعرفها ، فإننا سوف نعتمد اعتمادا كبيرا على مباحثه ، ومشاهداته ، وتجاربه ونظرياته لنخلص منها إلى الإيمان بالله ، كما خلص اليه المخلصون من العلماء في الشرق والغرب على السواء .

فإن ديننا الحنيف لم يفرض علينا الإيمان عن طريق الإكراه ، ولم يرض لنا في أمور العقيدة التقليد .. بل أمرنا بالنظر في ملكوت السموات والأرض ، لنصل من خلال هذا النظر إلى الإيمان بالله .

اذ كل من قلد في التوحيد ايمانه لم يخل من ترديد
ففيه بعض القوم يحكي الخلفا وبعضهم حقق فيه الكشف
فقال : أن يجزم بقول الغير كفى والا لم يلزم في الضير

قال تعالى في كتابه الكريم : ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾

﴿البقرة/٢٥٦﴾ ينهى عن الإكراه في الدين ، لأنه يجب أن يكون قائما على القناعة والرضا وإلا فالإيمان به إيمان كاذب لا ينفع صاحبه .

وقال ينعي على المقلدين لأبائهم ، ويذمهم عليه ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾ ﴿الزخرف/٢٢﴾

وقال يحثنا على النظر : ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿يونس/١٠١﴾

وقال : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ﴿فصلت/٥٣﴾
وقال : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ ﴿وَفِي أَنْفُسِ

كُمُ أَفَآءًا تُبْصَرُونَ﴾ ﴿الذاريات/٢١﴾

ولو ذهبنا نستقصي الآيات التي تلفت نظر الخلق إلى آيات الخالق في الأرض والسماء لا حتجنا إلى حلقات متعددة ، ويكفيها هذا القليل الذي ذكرناه عن ذاك الكثير المعروف الذي لم نذكره .

وقانون الاستنتاج والاستنباط هذا الذي اعتمده فلاسفة الغرب لنفي الألوهية ، والذي سنعتمد عليه تماما كما اعتمدوا من أجل اثبات الألوهية ، هو قانون قديم عرفه الانسان منذ القدم . .

فها هو ابراهيم عليه السلام يقلب نظره في ملكوت السموات والأرض ليقوم الحجة على قومه في وجوب الايمان بالخالق الذي لا يحول ولا يزول ، يقص الله

علينا قصته في القرآن فيقول : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا

قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿الأنعام/٧٩﴾

فها هو عليه السلام يستدل بزوال هذه الكائنات وعدم استمرار ظهورها ، على أنها ليست آلهة ، والا لما زالت ، فلما زالت كان لا بد لها من مزيل ألا وهو الله ، ليقيم الحجة على قومه ، كما قال تعالى :

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءِ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿الأنعام/٨٣﴾

وهاهو القرآن يلفت نظر المشركين إلى آيات الله في الكون ليستدلوا من خلالها على وجود الله فيقول : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿البقرة/١٦٤﴾

وها هو الأعرابي يستدل بفطرته السليمة على وجود الله ، وبنفس القانون الذي اعتمده العقل الحديث فيقول : ((البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على

المسير، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدل على اللطيف الخبير)) .

ولذلك سننتقل في الحلقات القادمة إن شاء الله إلى النظر في ملكوت
السموات والأرض ، فننظر في الفضاء ، والأرض والنبات ، والحيوان ،
والإنسان ، ومن خلال الحقائق العلمية التي اكتشفها العقل الحديث ، لتثبت بما لا
يدع مجالاً للشك وبنفس أسلوب العقل الحديث وجود الله ووحدانيته .

ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

الادلة على وجود الله ١ - من الفضاء

ذكرنا في الفقرات الماضية أن كل ما في الكون يدل على وجود الله ، سواء أكان في السماء أم في الأرض، وسواء أكان من الجمار ، أم النبات ، أم الحيوان ، أم الإنسان .

وسنبداً بالعالم الفضاء لنرى بعض ما فيه من الآيات الكثيرة الدالة على وجود الله .

يقول علماء الفلك : إن عدد نجوم السماء يساوي عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها.

وهذه النجوم منها ما هو أصغر من حجم الأرض ، ومنها ما هو بحجمها، ومنها ما هو أكبر منها حجماً، بحيث يمكن أن يستوعب ملايين الكواكب الني هي بحجم الأرض ، ومنها ما تكون الأرض بالنسبة له كذرة رمل في صحراء .

وهذا الكون الذي تسير فيه هذه النجوم فسيح جداً ، لم يستطع الإنسان أن يتصوره حتى الآن ، حتى أن العقل ليكاد يتوهم أنه لا نهاية له ، ومع ذلك فهو بناء على نظرية انبشتاين دائم التوسع والتمدد بحيث يتضاعف حجمه خلال مدة تقدر ب ١٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية تقريباً .

وهذه الكواكب التي تزينه تسير فيه بحركة دقيقة منتظمة ، وبسرعة خارقة، بعضها يسير وحده ، وبعضها يسير مثلي مثلي ، ومنها ما يتحرك بشكل مجموعات .

وأقرب حركة منا هي حركة القمر ، الذي يبعد عنا بمقدار ٢٤٠,٠٠٠ ميل وهو يدور حول الأرض ، خلال مدة تسعة وعشرين يوماً ونصف يوم .

وتبعد الأرض عن الشمس بمقدار ٩٣,٠٠٠,٠٠٠ ميلا ، وهي تدور حول محورها بسرعة ألف ميل في الساعة ، في دائرة محيطها ١٩٠,٠٠٠,٠٠٠ ميلا وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة في السنة .

وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض ، وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة ن وأبعد هذه الكواكب يدور في محيطها ٧٥٠٠ مليون ميلا ، ويدور حول هذه الكواكب واحد وثلاثون قمرا حول الشمس ، ويوجد سوى هذا حلقة من ثلاثين الفا من النجميات ، وشهب لا حصر لها ، وكل هذه الكواكب ، والنجميات ، والمذنبات تدور حول هذا الكوكب العظيم ، وهو الشمس ، التي يبلغ قطرها ٨٦٥ ألف ميل وهي أكبر من الأرض ب ١,٢٠٠,٠٠٠ مرة ، والشمس وما يجري حولها يشكل المجموعة الشمسية .

وهذه المجموعة بأسرها على هذا النظام البديع الذي وصفناه ليست واقفة في مكان ما ، وإنما هي تسير بسرعة ٦٠٠ ألف ميل في الساعة الواحدة . وهذه المجموعة واحدة من آلاف المجموعات ، والتي تكون بأسرها ما نسميه بالمجرة ، فالمجرة الواحدة تحتوي على آلاف المجموعات التي تشبه المجموعة الشمسية .

وهذه المجرة ليست واقفة أيضا وإنما تدور بكل مجاميعها ، تدور حول محورها بحيث تكمل دورة واحدة في ٢٠٠ مئتي مليون سنة ضوئية . وأما عدد المجرات في السماء فهو كبير جدا ، وكما ذكرت قبل قليل لا يقع تحت الحصر ، ولكن العلماء قدروا عددها تقريبا ب ٥٠٠ مليون مضروبا ب ٥٠٠ ألف مليار ، وفي كل مجرة مائة مليار من النجوم تقريبا ، وهذه كلها أقيسة رياضية تقريبية والا فالكون أكبر من هذا بكثير .

وكل هذه المجرات تسير بنظام محكم دقيق ، لا يتطرق اليه الخل ، بحيث يستطيع الانسان الفلكي أن يعطينا جدولا لآلاف السنين عن حركتها ، وأماكن

وجودها ، وبدقة متناهية .

ومع هذه الحركة ، والدوران الذي تتصف به كل السيرات ، والمجرات ، نجد أن هذه المجاميع تتباعد عن حاشية المجرة وبسرعة فائقة .

فالمجموعة الشمسية وهي تدور حول الشمس ، تدور أيضا على حاشية المجرة ، وبنفس الوقت تتباعد عن هذه الحاشية بمقدار اثني عشر ميلا كل ثانية، ويتبعها في هذه العملية جميع النجوم الداخلية فيها.

وليس هذا شأن مجموعتنا الشمسية فقط ، وإنما هو شأن جميع المجاميع التي تدخل في حيز المجرة ، كل مجموعة حسب نظامها

وهذه الحركة بأسرها خاضعة لنظام مدهش دقيق وعجيب ، يمكن أن نتصوره حينما نعلم أن كواكب مجرة ما، قد اختلطت بكواكب مجرة أخرى أثناء سباحتها في الفضاء ، إلا أنه سرعان ما تخرج كل مجرة بكواكبها ، دون أن يختلط كوكب منها بكواكب المجرة الأخرى ، ودون أن يصطدما ، بل أن تصادم ذبابتين في غرفة طولها عشرة أمتار وعرضها عشرة أمتار وارتفاعها عشرة أمتار أقرب من تصادم كوكبين في السماء ، على كثرة عدد الكواكب ، وسرعة سيرها ، وكبر حجمها .

أو يجوز لعاقل بعد أن يعرف هذا ، أن يقول : إن كل هذه الدقة ، وكل هذا الأحكام والإتقان ، قد وجد عن طريق الصدفة ، وليس عن طريق القدرة الإلهية الحكيمة المتقنة ، اللهم لا . . إنها آياتك في السماء . .

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿آل عمران/ ١٩٠﴾

الاتفاق العجيب في نظام الحركة في الكون

ذكرنا في الفقرة الماضية أن القمر يدور حول الأرض ، وأن الأرض

تدور

حول الشمس ، وأن الشمس مع كل كواكبها ، ومذنباتها ، ونجوماتها تدور حول محور المجرة ، وأن المجرة تدور في هذا الفضاء ، في نظام محكم دقيق وبديع .

ولكن ما هو شكل هذا الدوران ، وما هو اتجاهه ؟ .

يقول علماء الفلك : إن القمر يدور الأرض دورة بيضوية الشكل ، وبمعكس عقارب الساعة ، أي من اليمين إلى اليسار.

كما أن الأرض تدور حول الشمس دورة بيضوية الشكل ، كدورة القمر ، وبمعكس عقارب الساعة أيضا .

والمجموعة الشمسية تدور في فلك المجرة ، دورة بيضوية ، وبمعكس عقارب الساعة ،

ولا داعي للاستقصاء ، فكل الحركة في السماء على هذا الشكل ، وبهذا الاتجاه . .

إن هذا النظام العجيب الدقيق في الشكل والاتجاه ، والذي نجده في المجموعة الشمسية في الفضاء ، إننا لنجد نظيره في الأرض ، وفي كل ذرة من ذرات عناصرها .

فالذرة ، وهي أصغر جزء في العنصر لا يقبل التجزئة ، هذه الذرة لا يمكن أن يشاهدها الإنسان ، حتى ولو استعمل منظار يكبر الجسم ملايين المرات ، فهي إذن متناهية في الصغر .

إلا أنها ومع صغرها هذا ، والذي يكاد يجعلها عدما ، إنها مع صغرها تحتوي على نفس النظام الذي وجدناه في الشمس ، وفي الحركة والاتجاه

فالذرة تتكون من اليكترونات وبروتون ، والإليكترون وهو الجزيء السلبي في الذرة ، يدور حول البروتون الذي يشكل الجزء الإيجابي فيها ، وبسرعة فائقة

جدا ، بحيث لا يمكن تصور وجوده في مكان محدد في محيطه لسرعة دورانه ، وإنما يتخيل موجودا على طول مداره في وقت واحد ، لأنه يدور حول مداره بلايين المرات في الثانية الواحدة .

وهذا الدوران بيضوي الشكل وبعكس عقارب الساعة .

إذن فنظام الحركة الموجودة في المجموعة الشمسية شكلا واتجاها يوجد بعينه في ذرات هذا الكون في الأرض ، والسماء ، وفي الجمار والنبات ، والحيوان ، والإنسان .

أن أي عاقل في هذا الكون ، ينظر إليه بعين الإنصاف ، لا بد له أن يوقف ، أن موجود هذا القانون وشكل الحركة واتجاهها إنما هو موجود واحد ، وألا لا ستحال وجود هذا التشابه بين نظام الحركة في السماء ، ونظام الحركة في كل ذرة من ذرات الأرض ، بل الكون .

إن العقل المنصف لمضطر للإيمان بالله من خلال هذه المشاهدة العجيبة المدهشة .

فإذا جاز لدارون والداروينيين أن يستنبطوا من الشبه الموجود بين الحصان والكلب ، أو بين الإنسان والقرد ، من حيث الخلق ، إذا جاز لهم أن يستنبطوا من هذا التشابه أن الجد الأعلى لهذه الحيوانات واحد ، أفلا يجوز للإنسان المؤمن أن يستنبط من هذا التشابه اليقيني المحكم الدقيق بين الحركة في الذرة والحركة في المجموعة الشمسية ، أفلا يجوز له أن يستنبط من هذا التشابه أن الخالق لهما واحد . .

بل . . اللهم أنا لنشهد على أن خالق هذه الكائنات واحد ، لهذا التشابه الذي يستحيل أن ينتج عن طريق الصدف ، بل لابد أن تكون وراءه قدرة حكيمة ومبدعة .

بل زاد الأمر على هذا ليزداد المؤمن يقينا ، فعندما أمر المؤمنون بالطواف حول البيت ، أمروا بالطوف بعكس عقارب الساعة ، وبدورة بيضوية ، بسبب حجر إسماعيل الذي يجعل البيت مستطيلا ، وكأن الله أراد الإنسان المؤمن في حركته الظاهرية أن يكون متطابقا مع حركة الكون ، في أصغر ذرة إلى أكبر جرم سماوي ، لنلا يكون الإنسان شاذا في حركته العبادية ، التي يخضع فيها خضوع الشمس والقمر والنجوم والكواكب . . وليدل المؤمن على أن هذا الأمر إنما هو من عند الله خالق الحركة في السماء والأرض .

وصدق الله إذ يقول : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ

الْحَقُّ ﴾ ﴿ فصلت / ٥٢ ﴾

الأدلة على وجود الله ٢_ التوازن الدقيق في الأرض وما فيها

إن الله خلق الإنسان ، وأنزله إلى الأرض ليعيش فيها ويعمرها، ولذلك كان لابد للأرض أن تكون ملائمة للحياة في كل جانب من جوانبها، وإلا لا ندرست الحياة من فوقها .

وأن المتتبع الحاجات الحياة على الأرض ليقن بأنه من المحال عقلا أن تنتج تلك الظروف عن طريق المصادفة أو العشوائية بل لابد من قدرة عظيمة وتخطيط محكم سليم أدى إلى إيجاد تلك الظروف والحالات لتستمر الحياة .

فالأرض كرة معلقة في الفضاء ، تدور حول نفسها مرة كل يوم ، فينتج عن ذلك الليل والنهار ، وتدور حول الشمس مرة كل عام ، فينتج عن ذلك الفصول الأربعة ، الصيف ، والخريف ، والشتاء ، والربيع ، ويؤدي هذا إلى زيادة مساحة الجزء الصالح للسكنى على سطحها ، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة ، ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ، ويمتد حولها إلى ارتفاع يزيد على ٥٠٠ ميل ، ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوميا إلينا ، منقضة بسرعة ثلاثين ميلا في الثانية .

والغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة في القارات ليكون المطر الذي لولاه لاضمحلت الحياة .

والأرض بيئة ثابتة لحياة كثير من الكائنات الأرضية ، فتربتها تحتوي على العناصر التي يمتصها النبات ويحولها إلى أنواع مختلفة من الطعام يفتقر إليها الكائن الحي ، كما يوجد فيها كثير من المعادن ، مما هيأ لقيام الحضارة عليها .

إن حجم الأرض صغير إذا ما قيس بالفضاء الذي تسير فيه ، بحيث لا يمكن أن تشكل أي نسبة رياضية . . إلا أنه لو لم تكن هكذا ، على هذا الحجم ، والوضع ، والسرعة في الدوران ، لاضطرب نظام الحياة ، بل لانعدمت . .

فلو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو كان قطرها ربع قطرها الحالي ، لعجزت عن احتفاظها بالغلاف الجوي والمائي الذين يحيطان بها لضعف جاذبيتها، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت ، بالبرودة ليلا .

ولو تضاعف قطرها الحالي لزادت جاذبيتها للأجسام إلى الضعف مما هي عليه الآن ، ولانكمش تبعاً لذلك الغلاف الغازي الذي يحيط بها ويحفظها من الشهب ، ولزاد الضغط الجوي على كل بوصة مربعة من خمسة عشر رطلاً إلى ثلاثين رطلاً من الضغط الجوي ، مما يترتب عليه أسوأ الأثر على الحياة ، إذ يتضاءل حجم الإنسان حتى يصير بحجم السنجاب ، ولتعذرت الحياة الفكرية .

ولو بعدت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس ، لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية ، ولطالت دورتها حول الشمس ، وتنتج عن ذلك طول فصل الشتاء وتجمد الكائنات الحية على سطح الأرض ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها من الشمس أربعة أمثالها ، ولتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ، ولقصر زمن الفصل إلى نصف زمنه الحالي ، ولا ستحالت الحياة على سطح الأرض لشدة الحرارة .

وهذا الوضع بذاته يأتي فيها لو زادت حرارة الشمس إلى ضعف ما هي عليه الآن أو نقصت إلى النصف ، أو زادت سرعة الأرض حولها ، أو نقصت .

إن الأرض تميل بزاوية قدرها ٢٣ درجة ، ولهذا الميلان دواع مهمة ، إذ لو لم تكن مائلة لكان القطبان في حالة غسق دائم ، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوبا مكدسا في طريقة قارات من الجليد .

ولو كانت القشرة الأرضية أكثر سمكا مما هي عليه الآن بمقدار عشرة أقدام، لما وجد الأوكسجين ، إذ أن القشرة الأرضية تمتصه حينئذ ، وبدونه لا تدوم الحياة .

وكذلك لو زاد عمق المحيطات والبحار بضعة أقدام عما هي عليه الآن ، لا نجذب ثاني أكسيد الكربون والأوكسجين حتى يمتصها الماء ، ولا ستحال وجود النبات على الأرض فضلا عن الحياة .

والقمر يبعد عنا مسافة ٢٤٠ ألف ميل ، وينتج عن جاذبيته المد الذي يحدث في البحار ، ولذي يرفع مياه المحيط في بعض الأماكن إلى ستين قدما ، بل يخني القشرة الأرضية مرتين نحو الخارج مسافة عدة بوصات ، ولو كان قمرنا هذا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلا بدلا من المسافة الحالية لبلغ المد من القوة بحيث يغطي جميع الأراضي التي تحت منسوب الماء مرتين في اليوم ، ولأزاح الماء المتدفق الجبال بقوته ، ولربما تحطمت الكرة الأرضية لهذا الاضطراب .

إن كل شيء في هذا الكون ، وفي الأرض بصورة خاصة مخلوق على أكمل وجه ، وأدق نظام ، بحيث يكفل استمرار الحياة ودوامها ، ويهيئ للإنسان أسباب الاستمتاع بها والاستفادة منها .

فهل يمكن أن يوجد كل هذا ، وبهذه الدقة المتناهية ، بدون خالق مدبر حكيم . وعن طريق الصدفة العمياء ، اللهم إن العقل المنصف قديما وحديثا

ليشهد بأن هذا الذي ذكرناه أكبر دليل على وجودك ووحدانيتك وقدرتك .

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿٣٦﴾ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

وهذا التوازن العجيب المذهل الدقيق ، ليس فقط في تكوين الأرض ووضعها ، وإنما هو ظاهر في كل ما يعيش فوقها ، من نبات ، وحيوان ، وإنسان ، بحيث تتاح الفرصة ليعيش الجميع ، في ظل قانون التوازن الألهي فلا يطغي نوع على نوع آخر ليستبد بالحياة ، وقد ضرب العلماء عدة أمثلة لهذه الظاهرة تدلنا على مدى هذا التوازن .

لقد اضطر أهل أستراليا لزراعة نوع من الصبار كسياج وقائي لهم ، وكان هذا النوع سريع النمو والإنتشار ، ولم يكن في أستراليا أي نوع من الحشرات يعاديه ، فنمى ، وتمادى ، حتى غطى في أستراليا مساحة كبيرة تقرب من مساحة إنجلترا ، وضايق أهل المدن والقرى ، وأتلف مزارعهم ، وحال دون الزراعة ، وصار أهل أستراليا أمام هذا الجيش الزاحف إليهم من كل حدب وصوب ، مما يهدد حياتهم ، مما اضطر علماء الحشرات للبحث في جوانب الأرض عن عدو لهذا الجبار العنيد ، يقف في وجهه ، ويمنع انتشاره ، فعثروا على حشرة لا تعيش إلا على الصبار ، ولا تتغذى بغيره ، وهي سريعة الإنتشار بنفس الوقت ، وتمض إلا فترة

قصيرة حتى تمكنت هذه الحشرة من الوقوف في وجه الصبار ، بل اضطرتة إلى التراجع ، وأنهت مصائب أهل استراليا ، إلا أنها في نفس الوقت تراجعت هي أيضا ، ولم يبق منها سوى بقية قليلة ، وكأنها جيش احتياطي للوقاية ، يكفي لصد الصبار عن الانتشار إلى الأبد . . . ؟

فلولا هذه الحشرة ، لضاعت الأرض بأهل استراليا ، ولوبقيت الحشرة في نفس أعدادها ، ولم تتراجع هي أيضا ، لقضت على ذلك النوع من الصبار الذي نحتاج إليه .

إنه أعظم توازن في نظام البيئة والحياة ، ليضمن الاستقرار والدوام للجميع ، ولولاه لعدى بعض الأنواع على بعضها الآخر ، واختل توازن الحياة .

إن الحشرات تتنفس ، إلا أنها لا رئة لها ، كما هو الحال عند الإنسان ، وإنما تتنفس عن طريق أنابيب ، تضمن لها الحياة ، ولكن مادامت بحجم معين ، فإذا ما زاد حجمها عن المقدار المعين ، عجزت هذه الأنابيب عن تلبية احتياجاتها ومجاراتها في نسبة تزايد حجمها ، ولذلك لم يوجد في العالم حشرة تزيد عن بضع بوصات ، وكذلك لم توجد حشرة ذات جناح طويل إلا نادر ، ولولا رحمة الله ، بجهاز تكوين الحشرة وطريقة تنفسها ل زاد حجم الحشرات ، ولسيطرت على العالم بأسره ، ولما أمكن وجود الإنسان ، ويمكننا أن نتصور هذا الخطر العظيم فيما لو تصورنا أن النحلة أو الزنبور قد بلغا من الحجم حجم الفيل ، وهما يطيران في السماء ويقعان على كل ما يريدانه من المخلوقات ليفتكا بها^(١)

إلا أن حكمة الله اقتضت أن تكبح جماح هذه الحشرات بهذا الجهاز الذي يضمن بقاءها صغيرة .

لقد كان العالم يجهل فيما مضى كل شيء عن الفيتامينات ، وعما تؤديه من

(١) العلم يدعو للإيمان ص / ١٦٠

الوظائف الهامة في الحياة .

وكان الإنسان يصاب أثناء أسفاره البحرية بأمراض نقص التغذية كالاسقربوط مثلا ، الذي كان يفتك بالأعداد الكثيرة ممن يتعرضون له في سقرهم ، إلى أن اكتشف فاسكودي جاما الصلة الوثيقة بين فواكه الموالح ومرض الاسقربوط عندما رأى ملاحية يموتون في مدغشقر من هذا المرض ، وبذلك تمكن الإنسان من القضاء عليه وصار الملاحون يحملون معهم كميات كبيرة من عصير الليمون لمقاومة هذا المرض أثناء السفر ، حتى سموا في العهود الماضية بعاصري الليمون .

ومن هذا التوازن المدهش العلاقة الموجودة بين فراشه اليوكا ونبات اليوكا، وهو أحد النباتات الزنبقية ، فزهرة اليوكا تتدلى إلى أسفل ، ويكون عضو التأنيث فيها أكثر انخفاضا عن عضو التذكير ، أما الميسم وهو الجزء الذي يتلقى حبوب اللقاح فإنه يكون على شكل كأس ، وهو موضوع بطريقة يستحيل معها أن تسقط فيه حبوب اللقاح ، فلا بد من وسيلة لتنتقل هذه الحبوب إليه ، وإلا فلن يثمر ، ولذلك كان لابد من فراشة اليوكا التي تبدأ عملها بعد غياب الشمس بقليل فتجمع كمية من حبوب اللقاح من أسدية الأزهار التي تزورها ، وتحفظها في فمها الذي بني بطريقة خاصة لأداء هذا العمل ، ثم تطير الفراشة إلى نبات آخر من نفس النوع ، وتثقب مبيضاها بجهاز خاص في مؤخرة جسمها ، ينتهي بطرف مدبب ، يشبه الإبرة ، ينزل منه البيض ، وتضع الفراشة بيضة أو أكثر ، ثم تزحف إلى أسفل الزهرة حتى تصل إلى القلم ، وهناك تترك ما جمعت من حبوب اللقاح على صورة كرة فوق الميسم ، فيتلقح النبات ، وينتج عددا كبيرا من الحبوب ، بعضها يكون طعاما ليرقة الفراشة ، وبعضها يسقط إلى الأرض ليواصل دورة الحياة (١)

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص / ٤٧

والصور الدالة على هذا التوازن المدهش في الحياة كثيرة جدا ، لا سبيل إلى استقصائها في فقرة أو فقرات ، وكلها تدل دلالة قاطعة على أن هذا الكون لم يوجد عبثا ، وإنما كانت هناك يد حكيمة مقدره ، تتقن كل شيء صنعه ، ألا وهي قدرة الله ، لا يجد الانسان بدا من أن يؤمن بها ازاء هذه المشاهدات المذهلة التي تستحيل أن تكون عن طريق الصدفة او التوافق العشوائي . اللهم انها يد عنايتك ، وآية قدرتك ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ

فِيهِ تَسِيمُونَ ﴿ النحل/ ١٠ ﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿ النحل/ ١١ ﴾

الأدلة على وجود الله

٣ - عالم النبات

لم يحدث قط أن زرع انسان حبة قمح فأنبئت شجرة تفاح ، كما أنه لم يحدث قط أن زرع الإنسان بذرة تين فأعطته شجرة جوز أو مانجو ، ان حبة القمح عندما توضع في الأرض في أي ظرف ، وفي أي بيئة ، ومهما كان نوع التربة والغذاء لا تعطي الا القمح الذي نتجت عنه تلك الحبة .

اننا نزرع بذرة التين أو التفاح مثلاً في أرض تسقى بماء مالح ، وتزرع بجانبها بذرة ليمون تسقى بماء حلو ، الا اننا وبعد فترة من الزمان نجد أن بذرة التين قد أخرجت لنا شجرة التين ، ومن ثم ثمر التين الحلو اللذيذ - رغم أنها سقيت بماء مالح ، ونجد أن بذرة الليمون قد اخرجت لنا شجرة حمضية ، ومن ثم ثمر حامضاً، رغم أنها سقيت بماء حلو؟!!

ان حبة القمح قد احتفظت في باطنها بسجل غيبي رهيب تحكم في جذرها ، وساقها ، وورقها ، وسنبلها ، وثمرها ، فكانت شجيرة القمح كالشجيرة التي أخذت منها تلك الحبة ، ثم كانت حبات القمح كتلك الحبات .

كما أن بذرة التين والتفاح وغير ذلك من الفواكه والخضار قد احتفظت في باطنها بسجل غيبي رهيب جعل جعل شجرة التين تمتد بجذورها في باطن الأرض لعدة أمتار ، وجعل ساقها يرتفع في الجو لعدة أمتار وتنتج لنا ثمرة التين الحلوة اللذيذة .

وهكذا نجد أن كل بذرة ، لأي نوع من أنواع النبات ، قد سجلت في باطنها خصائص أصولها التي أخذت منها لتعيد نفس الدورة التي مرت بها تلك الأصول في الحياة .

إنها الجينات ((وحدات الوراثة)) التي تنقل خصائص الأسلاف الى الأتباع ، وخصائص الأصول الى الفروع ، بخطة محكمة دقيقة وثابته على ما سنذكره مفصلا عند الكلام على الإنسان .

أو ما تسائل العقل البشري كيف تم هذا ، وبأي ارادة وجد ؟

أو ما آن له أن يقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ

مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِّبَعْضِهَا

عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿الرعد/٤﴾

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ

تَسْمِيُونَ ﴾ ﴿النحل/١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ

الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿النحل/١١﴾

وبينما نجد النباتات يختلف بعضها عن بعض اختلافا فرديا في الشكل ، والثمر ، والطعم ، وغير ذلك ، نجد أن جميع النباتات تشترك ببعض الصفات العامة ، فكل النباتات مثلا تقوم بعمل التمثيل الضوئي الذي ينتج فيه النبات المواد الغذائية ، من ثاني اكسيد الكربون والماء في وجود الضوء ، وهنالك تشابه في المواد الغذائية ، من ثاني اكسيد الكربون والماء في وجود الضوء ، وهنالك تشابه في تركيب البذور والسيقان، والأوراق ، والأزهار وما يؤديه كل منها من الوظائف المتماثلة في النباتات المختلفة ، وهنالك الاستجابة الموحدة للمؤثرات الخارجية ، فكلها تننحي نحو الضوء وتموت عندما تحرم من الضوء أو الأكسجين ، الى غير ذلك من الصفات العديدة التي تشترك فيها جميع النباتات .

فمن الذي أوجد هذه الخصائص ، وهذا التشابه ؟
أولا يدل هذا التشابه على وحدة الصانع ، على النحو الذي ذكرناه في عالم
الفضاء .
بل انه ليدل .

يقول لورنس كولتون وهو أخصائي علوم الغابات والنباتات : تحتوي النباتات
على هرمونات تقوم بأداء وظائف مختلفة فيها ، ومن فصيلة هذه الهرمونات
مركب صناعي اسمه (٢ - ٤ - ٥ - ت) يقوم بانضاج ثمار الطماطم ، ويمنع
استنبات البطاطس عند خزنه ، ويؤدي الى سرعة نمو الأجزاء الجذرية عند
زراعتها ، وربما يقوم بغير ذلك من الوظائف الحيوية العديدة التي لم نكتشفها .
وهذا الهرمون - أو بعبارة أصح - هذا المنظم لعملية النمو - مما أبدعه
الخالق الأعظم مشابه لما استطاع الانسان أن يقوم بتركيبه في المعمل بعد تفكير
وتدبير - يعد دليلا على ما يسود هذا الخلق من نظام وتدبير .
ويهمنا في هذا المقام الطريق التي يسلكها النظير المشع لهذا المركب داخل
أشجار الغابات ، فذرة الكربون الأخيرة (ك ١٢) الداخلة في تكوين هذا المركب ،
يمكن أن تستبدل بنظيرتها (ك ١٤) بطريقة صناعية ، وعندئذ يمكننا استخدام
هذا المركب الجديد لكي يحدد بكل دقة الطريق التي يسلكها عند انتقاله من الأوراق
الى الساق الى الجذور ، بل يمكن فوق ذلك أن نعين معدل حركته داخل النبات ،
وقد يعد ذلك من وجهة نظر الخارجين عن الدين مظهرا لروعة الطبيعة ، أما
بالنسبة لنا فانه دليل على قوة الله الموجهة التي توجه كل ذرة الى حيث ينبغي أن
تكون ، وترسم طريقها وتحدد مستقرها .

ومن عجائب ما تكشف عنه هذه الدراسات ما يتبين من أن هذا الهرمون يبقى ثابتاً لا يتغير داخل النبات برغم ما يقوم به من التفاعلات العديدة . . وأعجب من ذلك كله أنه مهما تغيرت الكمية التي توضع منه على سطح الأوراق فإنه لا يمتص منه الا قدراً ضئيلاً ، فالنبات لا يحتاج منه في أداء وظائفه التي تتصل بعمليات التحول الغذائي الا قدراً يسيراً .

أفلا يدل كل ذلك على نظام دقيق عجيب ، رسمه خالق قادر مدبر^(١) ؟
ومن أعجب ما يمكن للإنسان أن يطلع عليه من آثار قدرة الله في عالم النبات هو الزهرة المسمات ((جاك في لمقصورة)) .

فلهذا النبات نوعان من المجموعات الزهرية ، ذكور وإناث ، وهي تتكون داخل مقصورات تضيق عند منتصفها ، ويتم التلقيح بواسطة ذبابة دقيقة تدخل الى المقصورة ، ولا تكاد تجتاز المنطقة الضيقة الوسطى حتى تجد نفسها سجينة ، ليس بسبب الضيق فقط ، بل بسبب تغطية الجدران الداخلية بمادة شمعية منزقة ، يتعذر معها على الحشرة أن تثبت أقدامها ، وعندئذ تدور الحشرة بصورة جنونية داخل المكان ، فتعلق هبوات اللقاح بجسمها ، وبعد قليل تتصلب جوانب المقصورة بعض الشيء فتستطيع الحشرة الخروج بعد ان يكون جسمها قد تغطى بهبوات اللقاح ، فاذا زارت الحشرة مقصورة مذكرة أخرى تكررت العملية السابقة .

أما اذا دخلت مقصورة انثى ، فانها تسجن في داخلها سجنًا دائماً حتى تموت ، وعند محاولاتها اليانسة للخروج تقوم بتلقيح الأزهار الأنثى ، ان النبات في هذه الحالة لا يهتم بخروج الحشرة ، لأنها تكون قد أدت رسالتها ، أما عند زيارتها للمقصورات المذكرة فانها يسمح لها بالخروج ، لأنها لا تكون قد أدت رسالتها بعد . ؟ !

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص / ٩٦ .

أفلا تدل كل هذه الشواهد على وجود الله ؟ إنه من الصعب على عقولنا ان كل هذا التوفيق العجيب قد تم بمحض الصدفة ، أنه لا بد أن يكون نتيجة توجيه محكم احتاج الى قدرة وتدبير (٢).

لقد دخلت حيث زيارتي لجنوب شرقي آسيا منذ ثلاث سنوات - دخلت الى الغابة ، مع بعض الأخوة من أهل البلاد ، فأرشدونا الى نبات نجمي لا ساق له يمتد على الأرض ، ويمتاز بأنه بمجرد لمسه أو ضربه يعود ، أو تحريكه ، يمتاز بأنه يذبل فوراً ، فترتخي الأوراق وتذبل ، ومن ثم تلتف وتتجدد ، وكأن هذا النبات يعلم أن خطراً قد داهمه ، ولذلك يظهر نفسه بمظهر الميت وهو كثير الانتشار في الغابة . على أنه لو مرت عليه حشرة من الحشرات التي لا تتغذى به فإنه لا يأبه لها ولا يتأثر ، مع أنها قد تحركه ، وكأنه يعلم أنه لا خوف من هذه الحشرة ولا ضرر يلحقه .

وإذا قلنا أن الانسان يتحرك بالعقل والارادة ، و الحيوان يتحرك فيكف يتحرك هذا النبات ، وكيف يدرك العدو من الصديق ، فأى عقل ، وأى عريضة ، وأى الهام يوجهونه هذا التوجيه .

إنها آيات الله في النبات كما هي آياته في السماء والأرض والانسان والحيوان

ان بعض الأشجار في الغابات ترتفع في الجو ما يزيد عن ثمانين مترا ويصل محيط جذعها عند القاعدة ٣١ مترا ، وقطرها ٩,٥ مترا ، ويبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن ولا شك أن جذرها في معدل ارتفاعها في الجو أو يقاربه ، وهي أشجار السيكونيا في كاليفورنيا ، ومع كل هذا الحجم المفرط الطول العجيب نجد أن الماء يرتفع من أعماق الأرض وبصورة دقيقة منتظمة الى كل فرع ، وكل غصن ، وكل ورقة مهما دقت شعيراتها ورق سمكها . مما تعجز عنه أضخم مضخة موجودة في العالم .

(٢) جون وليام كلوتس الله يتجلى في عصر العلم ص / ٤٨ .

فمن الذي أودع في هذا النبات وأمثاله هذه القدرة الماصة الكابسة ، لتوصل الماء الى هذا الارتفاع الهائل في الجو بحيث لو قطعنا ورقة من أعلى هذه الشجرة لوجدنا الماء يتقاطر منها ؟ على أننا لا نرى فيها ما نجده في المدن والعمارات من الأنابيب ، ولا تحتاج الى وقود وطاقة ؟
أنها آية الله الدالة على وجوده ووحدانيته وقدرته والتي تتجلى لنا في كل شيء ؟

﴿وآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾
وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ يس/٣٦﴾

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعَيْنَبَّا وَقُضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ عبس/٣٢﴾

الأدلة على وجود الله ٤ - عالم الحيوان

لقد قلبنا نظرنا في الفقرات الماضية بين السماء والأرض ، ورأينا من عجب صنع الله في قضاء الكون ، من خلال السيارات التي تسبح فيه ، وفي الأرض من خلال تكوينها والتوازن المدهش في نظامها وفي نباتاتها ، لقد رأينا في ذلك كله ما لا يدلنا على وجود الله فقط ، بل يفرض علينا الإيمان به ، لاستحالة وجود ذلك عن طريق الصدفة العمياء .

وفي هذه الحلقة سننظر في عالم الحيوان ، من خلال حياته وعرائزه والهوامته ، لنرى بديع صنع الله ، وبالعقد قدرته في هذا العالم الواسع العجيب ، مما لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق قدرة قاصدة إلى هذه النتائج التي سنذكرها ، بما توحى لهذه الحيوانات من الهامات تتجلى فيها هذه القدرة .

إن الحشرات المسماة ((بيكرو فور)) تموت بعد أن تبض مباشرة ، أي أنها لا ترى ذريتها ، وأولادها لا يرونها ، ولكن الشيء العجيب أن هذه الحيوانات قبل أن تبض تعنى عناية خاصة بجمع جثث حيوانية تضعها بجانب البيض ، لتصبح غذاء لصغارها متى خرجت ، فكيف عرفت هذه الحشرات أن بيضها يحتوي على صغار ، وأن تلك الصغار ستخرج وهي بحاجة إلى غذاء ، وأن هذا الغذاء يجب أن يكون تلك الجثث الحيوانية التي جمعتها لها قبل موتها ؟ أنه الإلهام الإلهي .

ومن عجائب خلق الله وقدرته في الحيوان ، أن الحيوانات المسماة ((يومبيل)) من أكلة الحشائش ، ولكن صغارها تولد من أكلة الحيوانات ، ولذلك تعتمد أمهاتها إلى وضع بيوضها على أجساد الحيوانات ، حتى إذا خرجت صغارها وجدت ما تتغذى به ، فمن الذي عرف الأمهات وهي من أكلة الحشائش أن أولادها من أكلة الحيوان . . ؟

ومن المذهل في هذا الباب الحيوانات المسماة ((أوديتير)) أو ((سفكس)) فإن صغار هذه الحيوانات متى ولدت احتاجت لأن تغذى بأجساد حيوانات حية ، ولذلك نجد أن أمهاتها اذا باضت عمدت الى اصطيد حيوانات تصلح غذاء لصغارها ولكنها يجب أن تبقى حية لأنها لو ماتت لما أعتدى بها الصغار ، من أجل هذا نراها عندما تصطاد هذه الحيوانات لا تقتلها ، وانما تضربها ضربة فتية تذهب حركتها دون امانتها ، ومن ثم تجمعها وهي على هذه الحالة من فقدان الحركة ، وتضعها بجانب صغارها ، فاذا خرج الصغار وجدوا أمامهم هذه الحيوانات الحية الصالحة لغذائهم .

ومن هذا القبيل الحيوان المسمى ((اكيلوكوب)) وهو من الحيوانات الطائرة التي نراها في الربيع ، هذه الحيوانات تعيش منفردة ، وتموت بعد أن تضع بيوضها مباشرة ، فلا ترى صغارها ، ولا الصغار يرونها ، وهذه الصغار عندما تفقس البيضة عنها تكون على حالة ديدان لا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ، كما أنها لا تستطيع الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضي أن تعيش مدة سنة من الزمان في مسكن مقفل ، وهدوء تام ، والا هلكت .

ولذا نرى الأم عندما يحين وقت بيضها تعمد الى قطعة من الخشب ، فتحفر فيها سردابا طويلا ، فاذا اتمته على ما ينبغي أخذت في جلب ذخيرة تكفي صغارها سنة ، وتلك الذخيرة هي طلع الأزهار - وبعض الادران السكرية ، فتحشوها في قاع السرداب ، ثم تضع بيضه ، ثم تأتي بنشارة الخشب ، وتكون منها عجينة ، تجعلها سقفا على تلك البيضة ، ثم تأتي بذخيرة جديدة تضعها فوق ذلك السقف ، ثم تضع بيضة أخرى ، وهكذا ، فتبني بيتا مكونا من عدة طوابق ، ثم تترك الكل وتموت (١) .

(١) دائرة معارف وجدي ٨ / ٥١٣ .

وهناك بعض الأنواع من العناكب المائية تعمل ما يحار فيه العقل الانساني رغم ما أوتيته من طاقة ، ان هذا النوع من العنكبوت اذا اراد أن يلد صنع لنفسه عشا على شكل بالون من خيوط بيت العنكبوت ، ومن ثم تعتمد هذه الأنثى الى تعليق هذا البيت بشيء ما تحت الماء ، إلا انه لا يكون منفوخا بعد ، لأنه لو كان منفوخا لما استطاعت انزاله الى الماء ، ولذلك تبدأ بعد انزاله الى الماء وربطه - تعمل على نفخه بطريقة عجيبة ، وذلك بأنها تخرج الى سطح الماء ، وتمسك وببراعة فائقة فقاعة هوائية في شعر تحت جسمها وتحمّلها الى الماء ، ثم تطلقها تحت العش ، ثم تتكرر هذه العملية حتى ينتفخ العش ، وعندئذ تلد صغارها ، وتربّيها ، وهي آمنة عليها من هبوب الرياح .

ان هذا النوع من العنكبوت يتقن عدة فنون من النسيج القابل للتماسك وسط الماء ، والدقة الهندسية والتركيب ، والملاحظة الجوية (١) .
ان الانسان ليعجب كل العجب عندما يرى هذه المشاهدات الناطقة أن ما يجري لا يمكن أن يكون عن طريق الصدفة ، وانما هو عن طريق الالهام الذي تتجلى به القدرة الالهية في أدق مظاهرها .
والا ، فمن الذي علم هذه الحيوانات هذه الطرق المتباينة من أجل تربية أولادها ، وكل منها يعمل في نطاق ما يصلح الصغار لا الكبار ، وفي نطاق ما يضمن لهم الدوام والاستمرار ، رغم أنه قد لا يكون ممن أدرك والديه أو أحدهما ؟
انها آيات الله التي تتجلى لنا في كل شيء .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا ﴿البقرة/ ٢٦﴾ ﴾

(١) العلم يدعو للإيمان ص / ١١٩ .

أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ

﴿البقرة/ ٢٦﴾

الحذر عند الحيوانات :

إننا نعرف نظام الحراسة عند الإنسان ، ولاسيما عند الجيوش النظامية وفي حالات الخطر . . إلا أن هذا النظام لا يمتاز به الإنسان فحسب ، بل هو موجود عند كثير من الحيوانات الأخرى .

فالفيلة مثلا عندما تريد أن تشرب ، يخرج قائدها في الليل من الغابة ، ويمشي نحو الماء في خفة وهدوء ، بحيث لا يسمع صوت أقدامه على الأرض ، أو احتكاك جسمه بأوراق الأشجار ، ثم يقترب من الماء ، ويقف هناك مدة من الزمان مصغيا بأذنيه ليلتقط أخف الأصوات ، وبعد أن يطمئن إلى أنه لا يوجد أي خطر ، يرجع إلى أصحابه ليصطحب معه خمسة منهم ، ويضع كلا منهم في مكان خاص للحراسة والمراقبة ، فيفهم كل منهم مهمته ويقوم بها على أكمل وجه ، ثم يعود إلى الأدغال ثانية ، ويجمع حوله القطيع ، ويخرج به في حذر وصمت ، حتى يصل إلى الحراس ، وهناك يترك القطيع ، ويمشي وحده نحو الماء ، ويقف بقربه مدة وجيزة بحذر وصمت ، حتى إذا اطمأن إلى سلامة المكان تماما ، أعطى إشارة إلى القطيع الذي ينساب إلى الماء ويشرب حتى يروى ، ويعود مسرعا إلى الغابة ، وبعد ذلك يأتي دور الحراس ، فترد الماء فرادى ، وكلما شرب أحدها عاد إلى مكانه في الحراسة ، وأخيرا ينزل القائد إلى الماء ، ويشرب ، ثم يجمع الحراس ويعود بهم إلى الغابة .

وإذا وقع في أثناء المغادرة حادث يثير الشك ، لجأت الفيلة إلى الفرار ، وإذا كان معها الصغار ، فإنها لا تذهل عنها لهول المفاجأة ولا تنساها ، ولذلك تحرص

على وضع كل صغير منها بين فيلين كبيرين ، يدفعانه أثناء فرار القطيع ،
ويحولان بينه وبين السقوط ؟ !

الهندسة عند الحيوانات :

قد يمضي الإنسان سنوات طويلة من حياته الدراسية حتى يتمكن من
الحصول على شهادة في الهندسة تخوله بناء السدود ، ولم نر قط أن إنسانا
ما في الحياة ولد من بطن أمه مهندسا بالفطرة ، فالعلم بالتعلم . . ؟

إلا أن القندس " كلب الماء " يولد من بطن مهندسا ؟ أنه لا يحب الماء إلا
ساكنا ، ذا عمق معين ، فيبني بيته وسط الماء بعيدا عن الذئاب والحيوانات
المفترسة .

وإذا لم تتوافر في الماء الشروط الضرورية لمعيشته ، سعى بنفسه إلى
تحقيقها ، فيبني سدا عبر النهر ليخفف من سرعته ، ويحجز أمامه كمية كبيرة
من الماء ، ويتكون بذلك حوض عميق يقيم فيه مسكنه .

والمواد المطلوبة لبناء السد هي الأخشاب والحجارة والطين ، فيحصل على
الأخشاب من الأشجار التي يقطعها من جذورها بأسنانه الحادة ، وبطريقة فنية
مذهلة تؤدي إلى سقوطها في النهر ، وذلك بحفر ساقها حتى يصير على شكل
مخروطين متقابلين ، فإذا سقطت في النهر عمد إلى جمع فروعها حول ساقها ، ثم
وضع بينها كميات كبيرة من الحجارة والطين ، فتماسك أجزاءها ، وتصبح سدا
يرفع مستوى الماء .

وإذا كان النهر واسعا لا تكفي شجرة واحدة للامتداد بين جانبة لجأ إلى حيلة أخرى . وأقام السد كله من قطع خشبية يكدها في الماء بعضها فوق بعض ، ويحصل على الخشب من الأشجار التي يقطعها ، بحيث يسقط على الأرض لا في الماء ، ويفصل عنها فروعها ، وينزع عنها قشرتها ، ثم يقطعها إلى أجزاء يتراوح طولها بين ثلاثة أقدام وستة ، حسب قدرته على نقلها إلى الماء ، وهو لا يحملها ، ولكنه يدحرجها بقدميه ، الأماميتين محافظا على اتزانه أثناء ذلك بتثبيت ذيله العريض على الأرض .

وتستدعي إقامة السد قطع عدد كبير من الأشجار ، وقد يكون موضعها بعيدا عن الماء ، ويستلزم نقل أجزائها جهدا شاقا ، وفي مثل هذه الحالة يحفر ترعه صغيرة تخرج من النهر ، وتصل إلى مكان قريب من الشجرة ، ثم يدحرج القطع وهو سابح ، حتى يصل بها إلى موقع السد .

وبعد أن تتكدس أكوام الخشب في النهر من جانب إلى آخر ، يقويها بالطين والحجارة ، فينقل الطين من الشاطئ ، والحجارة من الغابة أو الصخور المجاورة ، وهو يحملها بين ذقنه وكفيه العريضتين ، بحيث يستطيع أن يحمل حجرا وزنه ستة أرتال .

ويثابر القندس على عمله حتى يكتمل بناء السد ، الذي قد يبلغ طوله أحيانا ٤٠٠ متر ، هو في الغالب بينيه مستقيما ، إلا إذا كانت سرعة الماء شديدة فإنه يجعله مقوسا ليقاوم قوة اندفاع الماء .

وهذا السد لا يمنع تسرب المياه من خلال فجواته الضيقة ، ولكنه يكون أشبه بمصفاة تحجز وراءها كميات هائلة من الماء ، بحيث يرتفع الماء إلى نسبة ملائمة لما يريده ، وتكون كمية الماء التي يجلبها التيار مساوية لكمية الماء التي تتسرب من

الشقوق ، وبهذا يضمن القندس بقاء ارتفاع الماء ثابتا على النحو الذي يريده .

وهذا السد لا يقوم به قندس واحد ، وإنما يقوم به مجموعة من القنادس تتعاون تعاوناً تاماً من أجل بنائه ، وإقامة المساكن فيه .

ويبنى المسكن من نفس المواد التي تستخدم في إقامة السد ، ويختار له موقعا على السد نفسه ، أو فوق جزيرة في حوض الماء الناشئ من السد ، أو على حافة عالية من الشاطئ ، ويغطي سطحه الخارجي بالطين الذي يجمد ويتصلب وقت الشتاء ، وتكون حظيرة النوم فوق سطح الماء لتصل إليها أشعة الشمس ، ويتخللها الهواء ، أما المخزون فيكون تحت سطح الماء ، وفيه توضع مؤن الشتاء .

وإذا ضاق المخزن عن جميع الذخيرة ، عمد القندس إلى وضع بعض الأغصان تحت الماء ، وتثبيتها بالحجارة حتى لا تطفوا بعيداً عن السكن ، وفي الشتاء إذا تجمد سطح الماء الخارجي فإنه لا يجمد حول الأغصان لكونها في قاع الحوض بعيدة عن السطح ، ويستطيع القندس أن يغوص تحت الجليد ، ويصل إليها ويحمل جانباً منها ليشبع جوعه .^(١)

فمن الذي علم القندس هذا الفن المعماري العظيم ، من الذي علمه أن يجعل السد مستقيماً إذا كان دفع الماء ضعيفاً ، ويجعله منحنيّاً إذا كان دفع الماء قوياً ، ومن الذي علمه كيفية قطع الأشجار ، وحفر الترع لنقلها ، من الذي علمه أن يثبت غذاءه بعيداً عن سطح الماء حتى لا يتجمد حوله في الشتاء .

لا شك أنه إنما يعمل هذا بناء على إدراك وتصميم يعجز عنه الإنسان المفكر الناطق . . لا شك أن هذا أثر من آثار القدرة الإلهية في الهام الحيوانات مثل هذه الفنون .

الحيوانات المضيئة

(١) دنيا الحشرات ص ١٠٥ - ١١٠ ، غريزة أم تقدير الهي ص / ٨٤ .

هناك كثير من الأسماك ينبعث ضوء من أجزاء مختلفة من جسمها يهديها الطريق ، هنالك أحياء على شكل نجوم متألئة بضوء أخضر .

وهناك شعابين مائية يصدر عنها نور كهربائي أبيض .

وهناك سرطانات لها قرون استشعار تنبعث منها موجات ضوئية زرقاء وهذه المخلوقات تعيش على بعد ١٢٠٠ م تحت سطح الماء ، حيث الظلام الدامس ، ولذلك كان لا بد من هذه الإضاءة لتعرف الطريق ، وإلا كانت الكارثة .

لقد وجد نوع من حيتان سليمان له صف من المصابيح الطبيعية ممتد على طول جسمه .

ونوع آخر من السمك الأسود له صفان من المصابيح الحمراء ، ومئات من البقع المضيئة .

وهناك أسماك كبيرة تتحرك كأنها كتل متوهجة .

وفي بعض الأحيان تتجمع في بعض الأماكن مئات الملايين من الأجسام الصغيرة المضيئة لتقلب قاع البحر إلى كتلة من الضياء ؟

وبعض الأسماك تستطيع أن تطفئ نورها إذا اقترب منها عدوها ؟

وهذا النور لا ينبعث فقط من حيوان البحر فهناك أنواع أخرى من حيوانات البر تبعث مثل هذا النور كالحفافس المضيئة ، والحشرة النارية ، والديدان (١) المضيئة . كيف وجد هذا ؟ ومن الذي أوجده ، ولماذا لم تكن كل الأسماك مضيئة ، ومن الذي رتب هذه الأنوار على هذه الأشكال الهندسية ، ومن الذي علم

(١) غريزة أم تقدير الهي ص / ٤٢

السمك أن يطفئ نوره إذا داهمه عدو أو خطر . . . ؟ إنها آية الله الناطقة بقدرته ووحدايته وعظمته .

هجرة الحيوانات

لقد عرف كثير من الحيوانات بالهجرة إلى موطن آخر ، فرار من البرد ، أو رغبة في الدفء ، أو لغاية أخرى سوى هذا ، ولا سيما الطيور ، ونحن لا نريد أن نتكلم عن هجرتها جماعات جماعات وفي وقت محدد من كل عام ، وكأنها جيش نظامي يأتمر بأمر قائد واحد يجمعه في وقت معين ، ويسيره باتجاه معين ، ولا يعصى له أمرا طيلة سفره التي ربما بلغت آلاف الأميال ، وإنما نريد أن نتكلم عن بعض الغرائب في هجرة هذه الحيوانات .

فهناك طائر معروف " بخطاف البحر " ويسكن في المنطقة المتجمدة الشمالية ، ويربي صغاره فيها ، وعندما يأتي فصل الشتاء ، يبدأ هذا الطائر برحلة طويلة المدى ، يعبر فيها الكرة الأرضية طائر بجناحيه ، إلى أن يصل إلى المنطقة المتجمدة الجنوبية ليتمتع هناك بالصيف ، إلا أنه لا ينسى موطنه الأصلي ، فيدعوه الحنين للعودة إليه ثانية عندما يعتدل الجو ، فيرجع مسرعا ، بعد أن يقطع في هذه الرحلة حوالي عشرين ألف ميل . . . ، وهو في هذه الرحلة لا يجد قائد يقوده ، ولا يملك وسائل الملاحة الجوية التي يستعين بها الإنسان لتحديد الاتجاه . . . إلا أنه لا يضل أبدا طريقه ، لا في الذهاب ولا في العودة . . . على أنه قد يكون معه في هذه الرحلة صغاره التي لم تتدرب بعد على الهجرة قبل اليوم ، ومع هذا فإن هذه الصغار لا تضل طريقها ، وتستطيع أن تجتازه وحدها دون حاجة إلى إرشاد الكبار من أبناء جنسها .

وأما اللقلق فإنه يطير شتاء من ألمانيا وهولندا والنمسا مسافة خمسة آلاف ميل حتى أواسط أفريقية ، ثم جنوبها حيث يجد الجراد ، وهو طعامه المفضل .
فمن

الذي ألهمه أن طعامه في ذلك المكان على بعد آلاف الأميال ؟

والأعجب من هذا كله ما حدث لأحد الصيادين ، حينما صوب بندقيته إلى أول فوج من الطيور القادمة إلى شواطئنا الدافئة فرارا من البرد الزاحف إلى شمال أوروبا ، فاصطاد ببغاء معمرا ، مكتوبا على طوق من النحاس حول ساقه " ببغاء معمرا ، اعتاد السفر لأمريكا ، ويعود منها كل عام . . وهو ضرير . . " التوقيع مكتب هجرة الطيور بالنرويج (١) .

ألا تعجب أيها القارئ الكريم من هذا الخبر المثير ، ولاسيما إذا عرفت أن الإنسان الضرير لا يستطيع أن يسير في الأرض التي عرفها وخبرها إلا بواسطة عصا وقائد ومرشد ؟ . . لا بد للإنسان أن يدهش لهذا الخبر الذي تتجلى فيه أعظم آيات القدرة في هجرة هذا الحيوان الأعجم الأعمى .

وليست الهجرة والعودة إلى الموطن الأصلي من خواص الطيور فقط ، بل هناك كثير من الحيوانات الأخرى تتصف بهذه الصفة.

فهذا سمك السلمون الصغير يمضي عدة سنوات في البحر ، ثم يعود إلى نهريه الخاص به ، بل إنه يصعد جانب النهر الذي يصب عنده النهر الذي ولد فيه ، والأعجب من هذا كله أن هذه السمكة إذا نقلت إلى نهير آخر غير الذي ولدت فيه ، فإنها تدرك على الفور أنه ليس بجداولها ، ولذلك تشق طريقها خلاله ، ولو كان ضد التيار لتعود إلى نهريها الأصلي .

والأعجب من هذا ثعبان الماء ، الذي يسلك عكس مسلك سمك السلمون ، فإن هذا المخلوق العجيب إذا اكتمل نموه هاجر من مختلف البرك والأنهار ، وإذا كان في أوروبا قطع آلاف الأميال في المحيط قاصدا الأعماق السحيقة جنوبي برمودا ، وهناك تبيض ومن ثم تموت .

(١) الأهرام ٤ / ٥ / ١٩٧١ عدد ٣٠٩٤٨ ص ١١ غريزة أم تقدير الهي ص ١٧/

وأما صغارها فبعد خروجها من بيضها لا تملك أية وسيلة لتعرف بها أي شيء من تاريخها ، سوى أنها في مياه قفرة ، وعند ذلك تعود أدراجها ، وتجد طريقها إلى الشاطئ الذي جاءت منه أمهاتها ، ومن ثم إلى كل نهر أو بحيرة ، أو بركة صغيرة جاءت منه الأمهات ، ولذلك تظل كل المياه أهلة بثعابين البحار .

لقد قاومت هذه الثعابين الأمواج المتلاطمة ، والتيارات القوية العاتية، وثبتت للإمداد والعواصف ، حتى إذا اكتمل نموها ، دفعها قانون خفي إلى الرجوع حيث كانت .

ولم يحدث قط أن صيد ثعبان ماء أمريكي في مياه أوروبية ، أو ثعبان ماء أوروبي في المياه الأمريكية .

ولذلك نجد بطنا في نماء ثعبان الماء الأوروبي لمدة سنة أو أكثر ليعوض من زيادة مسافة الرحلة التي يقطعها ، بينما لا نجد هذا في الثعبان الأمريكي .

فمن أين نشأ هذا الحافز لتلك الحيوانات للهجرة من مواطنها ، ومن ثم للعودة إليها ، وكيف عرفت الطيور مواطنها الأصلية ، ورجعت تبني أعشاشها في نفس الأماكن التي كانت فيها ، وكيف عرف ثعبان البحر موطنه الأصلي الذي هاجرت منه أمه مع أنه لم يرها ، بل ماتت قبل خروجه إلى الحياة ، إنه لغز لا يملك الإنسان أمامه إلا أن يعترف بعجزه عنده ، ومن ثم لا يجد بدا من الاعتراف بقدرة خالق حكيم ذي قصد وتدبير ، وراء هذه الظواهر المدهشة العجيبة التي يستحيل أن تصدر عن صدفة عمياء ، إلا أنها قوة الله وقدرته ..

﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَنى تُؤْفَكُونَ ﴾ ﴿ غافر/ ٦٢ ﴾

مظاهر مشتركة بين جميع الحيوانات

١- التكاثر :

من الأشياء العجيبة التي تشترك فيها جميع الكائنات الحية القدرة على التكاثر لاستمرار الحياة ، وبقاء الأنواع ، وهذا التكاثر يتم بطرق مختلفة كلها تؤدي إلى الهدف المنشود ، ففي حالة تمييز الذكر عن الأنثى يتم ذلك عن طريق تلقيح الذكر للأنثى ، إلا أن بعض الحيوانات لا يتميز فيها الذكر عن الأنثى وذلك كالأميبيا.

فالأميبيا حيوان لا يتميز فيه ذكر عن أنثى ، ومع ذلك فإنه يتكاثر وينجب الذرية ، مع أنه حيوان أولي مكون من خلية واحدة ، ويتم تكاثره بطريقة عجيبة ، وذلك بانقسام الحيوان الواحد إلى قسمين ، وكل قسم منهما يتحول إلى حيوان لا يلبث أن ينقسم أيضا بدوره إلى قسمين وهكذا .

هذا إذا كانت الظروف ملائمة ، وأما إذا كانت غير ملائمة فإن هذا الحيوان يفرز حول جسمه حوصلة " كيسا " ثم ينقسم داخل هذه الحوصلة ويتكاثر مرات عديدة حتى تصبح الظروف ملائمة .

وفي الحيوانات الأرقى من هذه الحيوانات الأولية إذا كانت ظروف الحياة تحول دون التقاء الذكر بالأنثى ، فإن الحيوان يصبح في هذه الحالة أنثى وذكرًا في نفس الوقت ، يضم جسمه أعضاء التناسل الأنثوية والذكورية معا مما يسهل فرصة اللقاح وإنجاب الذرية ، وذلك كالدودة الكبدية التي تعيش في القنوات المرارية لبعض الحيوانات حيث يصعب على أحد الجنسين التنقل والتحول في هذا المكان الضيق للعثور على الجنس الآخر .

وفي الوقت نفسه إذا حدث والتقى حيوانات من هذه الديدان فمن الممكن أن يتم التلقيح العادي حيث يصبح أحدهما ذكرا ، والآخر أنثى .

إن حدوث ملايين الصدف في آن واحد ، لهدف واحد ، وفي حيوانات مختلفة ، وبوسائل متباينة ، ولا يقره العلم ، ولا تقره الرياضيات ، وفي هذه الحالة لا بد من التسليم بوجود قوة خالقة مدبرة وراء كل هذا التخطيط .

٢- الغريزة الجنسية :

ومن الأشياء التي حيرت العلماء الغريزة الجنسية التي تجعل الذكر ينجذب إلى الأنثى والأنثى تنجذب إلى الذكر ، ولولاها لما استمرت الحياة ، ويكاد يكون الهدف الرئيسي لبقاء بعض الحيوانات هو إتمام الالتقاء الجنسي ، ثم بعد ذلك يموت الحيوان ، وذلك كذبابة مايو ، التي لا تزيد حياتها عن بضعة أيام ، وهي في هذه الأيام لا تتغذى ، لأنها لا توجد بها أجزاء للفم تصلح لتناول الطعام ، وإنما وظيفتها الرئيسية في هذه الفترة القصيرة من العمر هي التقاء الذكر بالأنثى لإنجاب الذرية حيث تموت الأم بعد ذلك مباشرة ، بعد أن تكون قد أدت وظيفتها وكذلك يموت الأب ؟

٣- تعويض الأجزاء المفقودة :

ومن الصفات الأخرى التي توجد في جميع الحيوانات هي القدرة على تعويض الأجزاء المفقودة وتوجد بدرجات مختلفة في الكائنات الحية .

ففي حيوان " الهدرا " مثلاً شيء عجيب ، يصفه العلم ولا يستطيع تفسيره .

فهذا الحيوان يعيش في الماء ، وهو أنبوبي الشكل ، لا يزيد طوله عن بعض مليمترات ، ذو قاعدة مقفلة وفتحة أمامية تستخدم كفم لدخول الطعام ، وفي الوقت نفسه تستعمل كفتحة شرجية تخرج منها الفضلات ، وحول تلك الفتحة يوجد عدد من الزوائد المجوفة يتصل تجويفها بتجويف الجسم .

إذا قطعنا هذا الحيوان إلى نصفين نصف علوي ونصف سفلي ، فإننا نجد أن بعض الخلايا في كل نصف تتكاثر بحيث تستكمل الأجزاء الناقصة ، فتكون النتيجة تكوين جانبيين يشبهان الحيوان الأصلي ، بل لو قطعنا الحيوان لعدة أجزاء ، لأتم كل جزء نفسه ، وأصبح حيوانا مستقلا .

ويتركب جدار الجسم لهذا الحيوان من طبقتين من الخلايا ، طبقة خارجية ، وطبقة داخلية تحيط بالتجويف الداخلي للجسم ، وفي كل طبقة من الطبقتين توجد أنواع مختلفة من الخلايا ، لكل نوع منها وظيفة محددة ، فمعظم خلايا الطبقة الخارجية وظيفتها الأساسية حماية جسم الحيوان ، أما الطبقة الداخلية فوظيفتها الرئيسية هضم الغذاء الذي يبتلعه الحيوان من خلال الفم ، ولو قلبنا هذا الحيوان كما يقلب الجورب ، فإن الخلايا الخارجية تصبح داخلية ، والداخلية تصبح خارجية ، ولكن العجب الذي حير العلماء هو أن الخلايا التي أصبحت الآن خارجية لا تلبث أن تهاجر نحو الداخل والخلايا الداخلية تهاجر نحو الخارج ، لكي يعود تركيب الحيوان على ما كان عليه ، ولو لم يحدث ذلك لمات الحيوان ، لأنه يبقى بدون خلاياها .

إن من المحال أن تنسب كل هذه الأمور إلى الصدفة ، بل لا بد أن تكون نتيجة لتدبير واع حكيم ، يتجه لهدف واحد معين ، وهو الحفاظ على حياة الفرد ، أنه تدبير الله وقدرته .

٤- الغذاء :

إن جميع الكائنات الحية تتغذى ، والحيوان يحصل على غذائه من مواد نباتية أو حيوانية ، والغذاء الذي يتناوله الحيوان لا بد أن يهضم ليتمتصه الجسم ويستفيد منه ، وعملية الهضم عملية معقدة ، لا مجال لشرحها هنا الآن .

ولا أريد أن أتكلم على طريقة الغذاء عند الإنسان ، وإنما نريد أن نرى

طريقة الغذاء عند الحيوان وحيد الخلية ، الأميبيا ، إذ تتم عملية التغذية بطريقة عجيبة ، إذ تمتد من هذا الحيوان المجهرى أذرع تلتف حول المادة الغذائية الموجودة حوله في الماء ، والتي قد تكون حيوانا أصغر منه جسما أو نباتا وحيد الخلية أصغر منه ، والمواد الغذائية في هذه الحالة قد تكون متحركة إذا كانت حيوانا أصغر منه ، وقد تكون ثابتة إذا كانت نباتا .

ومن العجيب أن الأميبيا ، هذا الحيوان المجهرى البسيط ، الذي لا يوجد به مخ أو جهاز عصبي ، نجده يفرق بين المواد الغذائية الثابتة والمواد المتحركة ، فإذا كان الغذاء متحركا فإن أذرع الأميبيا تمتد بحذر بعيدا عن الحيوان لكي لا يهرب ، أما إذا كان الغذاء ثابتا فإن الأذرع تمتد حوله ملاصقة له بلا احتياط ولا حذر.

كيف يدرك هذا الحيوان المجهرى الذي لا مخ له ولا عصب ولا عيون ولا حواس ، مثل هذه الأمور الدقيقة المذهلة ؟

وإذا ما أطبقت الأذرع على المادة الغذائية ، أصبحت في داخل الجسم، محاطة بقطعة ماء ، وعند ذلك يبدأ جسم الأميبيا في إفراز أنزيم هاضم حامض ، ليقتل الفريسة التي التهمها ، إذا كانت لا تزال حية ، وبعد ذلك يفرز أنزيما قلويا ، وأما الحكمة في ذلك فهي أن أهم الأنزيمات وهو الأنزيم الذي يهضم المواد البروتينية لا تعمل إلا في وسط قلوي . . ؟

فمن الذي علم الأميبيا هذا الفن الكيماوي الذي مرت على البشرية آلا السنين وهي تجهله . . ؟ !

٥- تبادل الشعور :

إن هناك وسائل لم يتعرفها الإنسان بعد . . ؟ تستطيع الحيوانات التفاهم بواسطتها .

فها هو طائر " الطيطوى " يحلق في الجو ويدور ، ولا تمر سوى دقائق حتى تطير كل طيور الطيطوى وراءه في وقت واحد ، مما أثار عجب العلماء ودهشتهم .

وإذا راقبت هجرة الطيور ، وجدت أنها تتجمع في وقت واحد من السنة، وتطير في أسراب ، وباتجاه واحد ، وإذا أرادت الاستراحة نزلت إلى الأرض دفعة واحدة ، وكأنها جيش نظامي يأتمر بأمر أمير واحد .

وأما الفراشة الأنثى فإنها تملك جهاز إرسال يجهله الإنسان حتى يومنا هذا كل الجهل ، كما أن الفراشة الذكر يملك جهاز استقبال بهذا الشكل ، فإذا ما أرادت الفراشة الأنثى أن تستدعي الذكر فإنها ترسل إليه إشارة خفية ، وقد يكون الذكر على مسافة بعيدة ، ولكنه رغم هذا يتلقى تلك الإشارة ويجب الطلب ، ويأتي مسرعا ، مهما حاول الإنسان تضليله بما ينشره من روائح ، أنهما جهاز إرسال واستقبال عجيبان . . ؟ !

وأما الجندبة الأمريكية فإنها تحك ساقها أو جناحها معا ، فتصدر صريرا يسمع في الليلة الساكنة لمسافة نصف ميل ، وذلك بهزها ستمائة طن من الهواء ، لتنادي رفيقها كما فعلت الفراشة .

إن الإنسان المعاصر الذي سابق بمخترعاته الخيال لا زال عاجزا عن أن يصدر مثل هذه النداءات الذاتية .

إن الإنسان إذا أراد أن يصل لمرحلة الفراشة في إصدار مثل هذه المكالمات الذاتية التي لا تحتاج لا لماء ولا لكهرباء - يجب عليه أن يبذل جهودا مضنية لعشرات السنين - على أنه ربما عجز عن الوصول إلى مرحلتها المتطورة . . ؟

أو ليس في كل هذه العجائب - التي لا تتناهى لكثرتها - ما يدل على أنها من المحال أن تكون نتيجة للصدفة . . ؟

أو ليس فيها ما ينادي صباح مساء ليدل الإنسان الجاحد والمؤمن على السواء

أنه لا إله إلا الله الذي أتقن كل شيء ، وأحكم كل شيء خلقه ، وأن كل ما في هذا الكون من مظاهر العظمة إنما هو آياته ومعجزاته بلى إنها مظاهر القدرة التي لا يجدها إلا مكابر أو معاند . .

ديدان الفيلاريا :

ومن هذا القبيل أمر عجيب حار العلماء فيه فترة من الزمن إلى أن وصلوا إلى سره ألا وهو دورة حياة الديدان التي تسبب مرض الفيل ، وهي ديدان الفيلاريا ، تعيش هذه الديان في طورها الكامل في الأوعية الليمفاوية والغدد الليمفاوية للإنسان ، وتسد الأوعية الليمفاوية ، فتسبب تضخم بعض الأعضاء ، وعلى الأخص الساقين أو إحداهما ، حيث تصبح ساق الإنسان في حجم ساق الفيل .

وتتزوج هذه الديان أثناء وجودها داخل الأوعية الليمفاوية ، وتنتج ديدانا صغيرة تنتقل من الأوعية الليمفاوية إلى الأوعية الدموية ، وإذا بقيت هذه الديدان في الأوعية الدموية فإنها تعجز عن إتمام دورة حياتها ، إذا لا بد لها أن تنتقل إلى جسم بعض أنواع البعوض ، لكي تتم تلك الدورة وتصبح قادرة على عدوى إنسان آخر ، فإذا امتصت البعوضة دم إنسان مصاب ، فإنها تمتص مع الدم عددا من هذه الديدان الصغيرة التي تنمو داخل جسم البعوضة حتى يكتمل نموها ، وتصبح قادرة على عدوى الإنسان إذا حقنتها البعوضة في دمه أثناء عملية امتصاصها لدم إنسان سليم .

ولقد حاول العلماء الحصول على هذه الديدان من دم المصابين بهذا المرض ، ولكن جميع محاولاتهم كانت تبوء بالفشل ، إلى أن حدث شيء عجيب ، في إحدى الليالي كان أحد العلماء ساهرا في معمله حتى ساعة متأخرة من الليل فأخذ عينة من دم إنسان مصاب بهذا المرض ، وفحصها ، تحت الميكروسكوب وفوجئ بوجود عدد هائل من هذه الديدان ، وفي أثناء النهار في اليوم التالي أخذ عينة من المصاب نفسه ، فلم يجد للديدان أثرا ، واحتار في تفسير هذه الظاهرة العجيبة ، لماذا توجد في عينة الدم إذا أخذها من المصاب ليلا ، ولا توجد إذا أخذها نهارا .

وأوضح أن تلك الديدان الصغيرة تهرب إلى الأوعية الدموية الداخلية في أثناء النهار ، ثم تعود إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد ليلا .

والحكمة من ذلك هي أن البعوض الذي يتغذى على دم الإنسان لا ينشط إلا أثناء الليل ، ولذلك فإن الديدان تنتقل إلى الأوعية الدموية القريبة من سطح الجلد ليلا ، لكي يتمكن البعوض من امتصاصها مع الدم ، لتتم دورتها داخل جسم البعوضة .

إن هذه الديدان لا تدري شيئا ، ولا تعرف شيئا ، إنها مجهرية لا ترى بالعين ، ولكنها تدرك أن البعوض لا يأتيها إلا في الليل ولذلك فهي تعرض نفسها له .

فمن الذي علمها هذا وهي لم ترى البعوض ، ولم تعيش معه ، ولا تعرف شيئا عن وقت نشاطه أو خموله .

لا شك أنه الإلهام الإلهي في أبدع صورة وأغربها ، ليدل على عظمة الله وقدرته .

النمل :

لنتوغل ثانية في عالم الحيوان ، لنتمتع بمشاهدة عجائب القدرة الإلهية في هذا العالم المليء بالأسرار ، ولننظر إلى النمل ، هذه الحشرة الصغيرة التي تشبه الإنسان إلى حد كبير في كثير من عاداته ، من بناء المدن ، وشق الطرق ، وحفر الأنفاق ، وتخزين الطعام ، وإقامة الحدائق ، والعناية بالزراعة ، واستئناس الحيوانات لخدمتها ، وشن الحروب ، وأخذ الأسرى .

إن الإنسان عندما يسمع هذا الكلام يتوهم أننا نتكلم من وحي الخيال ، إلا أنها الحقيقة التي غفل عنها كثير من الناس .

لقد استأنس النمل مئات الأجناس من الحيوانات الأدنى منه شأنًا ، قبل أن يوجد الإنسان على ظهر الأرض بملايين السنين ، ولقد وجد نحو ألفي نوع من هذه الحشرات المختلفة داخل مساكن النمل الذي نجح في استئناسها بينما لم يستأنس الإنسان سوى عشرين نوعًا تقريبًا .

إن النمل يحب مادة حلوة هي " الندوة العسلية " ولكن هناك حشرات أخرى وخصوصًا المن منها ، تتخم نفسها بهذا السائل الحلو ، ولهذا عمد النمل إلى استخدامها في جمع هذا السائل ، ولهذا يرسل النمل رسله في الربيع لتجمع له بيض هذه الحشرات إلى مستعمرته ، ومن ثم يعنى بها ، ويهتم بشأنها ، فإذا فقس البيض ، وخرجت منه الصغار ، أطعمها النمل وأكرمها ، وبعد فترة قصيرة يحمل النمل صغار المن إلى الخارج ، ويضعه على النباتات التي تفرز " الندوة العسلية " ، وعند مجيء الليل يقود النمل ثمانية هذه الحشرات إلى المستعمرة ، تمامًا كما يفعل الفلاح حينما يعود بالبقر مساء من المراعي كي يحلبها ، ويبدأ النمل بحلب حشرة المن ، ولكن بطريقة عجيبة ، وهي تتمثل بمسح نملة ما ظهر حشرة المن التي لا تلبث أن تفرز المادة الحلوة بهذه المسحة ، ولقد وجدت بعض حشرات المن تعطي ثمانية وأربعين نقطة من هذا السائل خلال أربع وعشرين ساعة .

وقد بلغ حسن التدبير عند النمل إلى درجة أنه يبني حجرات خاصة لما يحتفظ به من حشرات المن ، كما يفعل الفلاح عندما يبني الحظائر لأبقاره .

ومن شغالة النمل صنف معين يصبح بمثابة براميل حية لخزن الرحيق وعصارة بعض الأشجار والنباتات ، وهي تمتلئ بهذا السائل الحلو حتى تنتفخ معدتها كالبالون الصغير ، وتتعلق في سقف العش عامًا بعد عامًا ، وتملؤها الشغالة الأخرى بالرحيق .

إنها تضحية عجيبة ، قلما يوجد مثلها في أرقى المجتمعات البشرية (١)

ولا يعني النمل بتربية المواشي وحدها ، بل يعتني كذلك بالزراعة وفلاحة الأرض ، ولقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض ، قد نما بها أرز قصير من نوع نصف بري ، كانت مساحة القطعة خمسة أقدام طولا في ثلاثة عرضها ، وكان طول الأرز نحو ستة سنتيمترات ، ويتراءى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أنه لا بد أن يكون هناك من يعنى بها ، فالطينة حول الجذور كانت مشققة ، والأعشاب الغريبة كانت مستأصلة ، والغريب أنه لم يكن على مقربة من هذا المكان عود آخر من الأرز ، فهذا الأرز لم ينم من تلقاء نفسه . وإنما زرع زراعة ، ولوحظ أن طوائف من النمل تأتي إلى هذا المزروع وتذهب عنه ، فاستلقى العالم على الأرض يلاحظ ماذا تصنع ، ولم يلبث أن عرف هذا النمل هو القائم بزراعة الأرز في تلك البقعة ، وأنه اتخذها مزرعة ليزاول مهنة الزراعة فيملاً وقته ، وكان النمل يتعاون على هذه المهنة ، فبعضه كان يشق الأرض ويحرقها ، وبعضه الآخر كان يزيل الأعشاب الضارة ، فإذا ظهر عود من عشب غريب ، قام إليه بعض النمل وقضمه ، ثم حمله بعيدا عن المزرعة ، فلما نمت الأرز ، وصار طوله ستين سنتيمترا ، ونضجت حبوبه ، وبدأ موسم الحصاد ، شوهد صف من شغالة النمل لا ينقطع متجها نحو العيدان ، فيتسلقها إلى أن يصل إلى حبوب الأرض فينتزع كل شغال من النمل حبة ، وتهبط بها إلى الأرض ، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض ، بل الأعجب من ذلك أن طائفة من النمل كانت تتسلق الأعواد ، فتلتقط الحب ، ثم تلقي به إلى الأرض ، بينما كانت طائفة أخرى تتلقاه وتذهب به إلى المخازن .

ويعيش هذا النوع من النمل عيشة مدنية ، في بيوت كبيوتنا ، ذات شقق وطوابق ، بعضها فوق الأرض ، وبعضها تحت الأرض ، وفي هذه المدن نجد

(١) دنيا الحشرات ص / ٨٨-٧٨ وانظر غريزة أم تقدير الهي ص / ٥١

الخدم ، والعبيد ، والممرضات التي تعنى بالمرضى ليلا ونهارا ، كما نجد شغالات عملها رفع جثث من يموت من النمل .^(١)

كما أن النمل عندما يرى الشمس ساطعة والنهار دافئا في فصل الشتاء ، يعمد إلى إخراج الحبوب التي كان قد ادخرها في مخازنه ، وربما أصابتها رطوبة الشتاء ، يعمد إليها ، ويخرجها نهارا إلى ظاهر المستعمرة لتجف في أشعة الشمس ، والأعجب من هذا أنه إذا جاء المساء ، أو أدرك بحواسه الخاصة أن الجو قد تغير وأنه سوف يمطر ، عاد سريعا وأدخل تلك الحبوب إلى مخازنها^(٢)

من الذي علم النمل هذا ، وكيف وصل النمل إلى هذا النوع من المدنية الراقية ، والحياة الاجتماعية المتكافلة التي ربما قصر دون الوصول إليها الإنسان ، ولماذا لم نجد هذه المدنية الراقية عند جميع الحشرات ، إنها حكمة الله التي لا يجهلها إلا جاحدا أو معاندا

هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ

﴿ لقمان / ١١ ﴾

أولا يرى الإنسان في هذا الذي ذكرناه مصداق قول الله تعالى في قصة سليمان عليه السلام :

وَحَشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ

﴿ النمل / ١٧ ﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿ النمل / ١٨ ﴾

بل . . إنه تصديق العلم للدين وإذعانه لحكم الله

(١) الله الخالق أم الطبيعة ص / ٤

(٢) ملاحظة خاصة

النمل الأبيض :

النمل الأبيض نوع من انواع النمل ، يعيش في مستعمرات خاصة أيضا ، وفي بيئة خاصة .

فإذا زاد عدد أفراد المستعمرة عن الحد المعقول بالنسبة لكمية الغذاء المتوفرة في المستعمرة ، أو في الخارج ، فإن هذه الحشرة تدرك هذه الحقيقة فتبدأ الأفراد في التهام عدد كبير من البيض ، وبذلك تكون قد حلت مشكلة زيادة السكان والغذاء . . إذ أن أكل البيض يعتبر أولا غذاء وثانيا تحديدا للنسل . . وهذه الحشرة تتغذى على الأخشاب وتلتهمها بشراهة تصل لدرجة أن الانسان قد يتناول طعامه في بعض الأماكن التي ينتشر فيها هذا النمل يتناول طعامه مساء على منضدة الطعام ، ثم يأتي صباحا ، فلا يجد أثرا لتلك المنضدة ، ولا للأبواب ، ولا للنوافذ الخشبية ، إذ تكون هذه الحشرة قد أتت عليها ليلا وحطمتها .

ولما ذا يختار هذا النمل الخشب غذاء له ، مع أن الخشب لا يحتوي على أية مواد عضوية قابلة للهضم ، لقد تحير العلماء في هذه الظاهرة فترة طويلة من الزمن الى أن أكتشفوا السر ، وهو أنه يوجد داخل الجهاز الهضمي لجميع أفراد هذه الحشرات حيوانات دقيقة أولية ، يتكون جسمها من خلية واحدة ، وهذه الحيوانات الأولية تفرز أجسامها افرازات تحول الخشب الى مواد غذائية قابلة للهضم ، هي التي تغذي النمل الأبيض .

ومن العجب أنه لم يحدث اطلاقا أن اكتشفت نملة بيضاء واحدة تخلو أمعاؤها من هذه الحيوانات الأولية ، ولو لم توجد هذه الحيوانات داخل أمعاء النمل الأبيض منذ خلقها لما أمكن استمرارها ، ولا انقرضت منذ أول جيل من أجيالها . أو يمكن لعامل أن يقول : أن هذا وجد نتيجة لمصادفة ومن أول يوم خلقت فيه هذه النملة ، اللهم انها آيتك ودليل قدرتك .

وفي بعض جهات استراليا الموبوءة بتلك الحشرات قد يرى السائح على مدى البصر آثار أبنية متلاحقة متصلة ، فيظن أنها من القرى المهجورة . أو المدن القديمة ، الا أنه يذهل عندما يخبره أهل المنطقة بأن هذه القرى ليست سكنا للآدميين ، وانما هي مساكن النمل الأبيض ، وهي ترتفع عدة أمتار عن سطح الأرض ، تصنعها هذه الحشرة من مادة غريبة هي خليط من لعابها وبعض المواد الأخرى ، وهي أقوى من الأسمنت المسلح ؟! بحيث يتعذر اختراقها من قبل الحشرات الأخرى أو المياه ، وبداخلها أنفاق متشعبة يعيش فيها النمل . كما أن هذه الحشرة يتفاهم بعضها مع بعض عن طريق لغة سرية خاصة ألا وهي أن تطرق جدار النفق برأسها طرقا معيناً وبعدد معين فيفهم باقي النمل في المستعمرة ماذا تريد تلك النملة ، أو ماذا يجب أن يفعل النمل بناء على هذه التعليمات السرية .

انها آيات القدرة الإلهية المدبرة الحليمة ، أنها الأدلة الناطقة بوجود الله .

النحل :

ان حياة النحل ، ومملكته ، من أعجب ما يمكن للإنسان أن يراه في عالم الحشرات ، انها حياة المدنية ، المنظمة ، الراقية ، المتعاونة ، المنتجة . وليس العجب في أنها منتجة ، ولكن العجب في أن انتاجها يعتبر من أعجب ما أنتجه الحيوان على الأرض . . ألا وهو العسل ، الذي لا تنتهي فوائده ، مما اظطر الدول العظمى كالولايات المتحدة الى اصدار مجلة أسمها ((النحل)) وكالاتحاد السوفيتي الذي يصدر مجلة أسمها ((المنتجات النحلية)) يضاف الى ذلك عشرات الأبحاث والكتب التي صدرت في العالم ، والتي تتحدث عن العسل وفوائده . . لتتضافر جهود العلماء في القرن العشرين من أجل تصديق قول الله

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

﴿النحل/ ٦٩﴾

وليحني العلم رأسه امام الدين ويتواضع امام عظمة الله .
وليس هذا موضوعنا ، وإنما هي كلمة عابرة يقتضيها الكلام على هذه الحشرة
الغريبة العجيبة بكل حياتها .

أما بيت هذه الحشرة فهو سداسي الشكل ، مبني بشكل بديع وأنيق ، ما عرف
النحل له شكلا آخر منذ أقدم العصور .

لماذا ؟ لماذا اختار النحل الشكل السداسي ؟ هل هو عبث ، أم صدفة عمياء ؟
لا انه أرقى درجات العلم والمعرفة ، وذلك لأن أبغض شيء على النحل أن يرى
فراغا في خليته ، والشكل الوحيد الذي يصلح لأن يملأ الحيز الموجود ، دون أن
يترك شيئا من الفراغ هو الشكل السداسي .

هذا ما توصل اليه الانسان المعاصر ، فمن الذي علم النحلة هذا العلم ، لتستغل
كل الفراغ الموجود في الخلية ، ومنذ ملايين السنين ، قبل أن يعرف الانسان هذا
العلم ، بل قبل أن يوجد الانسان ؟

الجواب عليه في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ

بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿النحل/ ٦٨﴾

ولهذه الخلية ملكة ، لا ينازعها أحد في ملكها وسلطانها ، يحيط بها التوابع
من كل جهة يقدمون لها الخدمة والراحة لتقوم بواجبها على أكمل وجه ، وهذا
الملكة لا عمل لها الا وضع البيض في الخلية لتستمر حياتها ويدوم نشاطها ، وهي
تضع في اليوم الواحد حوالي ٢٠٠٠ بيضة ، وتقوم بتلقيح ما يحتاج منها الى
التلقيح وذلك بعمل ذاتي منها ، بعد أن تكون قد تلقحت من الذكر واحتفظت بالمواد
المنوية التي تلقحتها منه لطول حياته تفرز منه بالمقدار المناسب عند الحاجة .
وللخلية - كما للجيش - كلمة سر ، تستطيع النحلة أن تعرف بواسطتها
النحلة الغريبة من نحل الخلية .

أما بالنسبة للشغالات اللاتي تجنبن الرحيق فعن طريق الرائحة التي تتميز بها الشغالة في ذلك اليوم بسبب الرحيق الذي تجنيه ، وذلك أن النحلة تختار كل يوم نوعاً من الرحيق لا تجني غيره ، وبناء على ذلك تعرف النحلة من رائحة هذا الرحيق ، هل هذه النحلة من خليتها أم من خلية أخرى .

وأما بالنسبة للنحلة التي لا تخرج للجنى فإن لها غدة خاصة في مؤخرة البطن تدعى (غدة ناسانوف) تفرز الرائحة التي تتوضع عليها الخلية باتفاق ودي وجماعي ، بحيث تستطيع أن تغير هذه الرائحة بتغير الظرف والبيئة ، من أجل الحفاظ على الخلية من أن يدخلها أي عنصر غريب .

والنحل يحب النظافة ، ولذلك فهو يعمل ليل نهار على تنظيف الخلية ، كما أنه يحبها أن تكون ملساء ناعمة لامعة ، ولذلك فهو يسد الشقوق ، ويسوي السطح الداخلي للخلية ، ويلمعه بواسطة مادة صمغية تجمعها الشغالات أثناء تنقلها بين الأشجار ، تسمى ((البروبوليس)) فتصير الخلية ملساء ناعمة .

وهناك مئات من النحل لا عمل لها إلا تجديد هواء الخلية ، ولذلك تقف هذه الفئة أمام باب الخلية ، وتحرك أجنحتها بصورة ينجذب معها الهواء الفاسد من الفتحة العليا ويدخل الهواء النقي الجديد .

وإذا اشتدت الحرارة ، وزاد معدلها عن حده المألوف داخل الخلية فامت فئة من النحل وعملت عمل المكيف للجو ، وذلك بصب الماء على اطارات الخلية ، والأطراف العليا للأقراص ، ثم تعمد الى تحريك أجنحتها أمام الباب لتحديث تيارا هوائيا لطيفا يمر على الماء الذي نشرته على جوانب الخلية ، فيتبخر الماء بسرعة ، مما يؤدي الى تبريد جو الخلية .

وأما إذا برد جو الخلية وخيف على اليرقات من الموت ، فانه في هذه الحالة يتنادى النحل بسرعة ويجتمع في وسط الخلية حول اليرقات ، وتصدر كل واحدة

منها شيئا يسيرا من الحرارة لتحفظ حياة اليرقة ، وتحمي الخلية من الانقراض .
وأما لغة التفاهم عند النحل ، فهي لغة غريبة وعجيبة ، فان الملكة اذا أرادت
أن تخرج للتلقيح ، فانها تحوم حول الخلية ، وتصدر طينينا خاصة مهيجا ، فتخرج
الذكور مسرعة خلفها ملبية لندائها .

وإذا رأت نحلة بستانا مليئا بالزهور ، فانها تدعو جميع الشغالات الى هذا
الحقل وبلغة تحدد فيها المسافة والاتجاه .

وللتعبير عن المسافة تلجأ النحلة الى نوعين من الرقص أحدهما الرقص
الدائري حول نفسها اذا كانت المسافة لا تتجاوز خمسين مترا ، والثاني هو
الرقص الاهتزازي وذلك إذا كانت المسافة أكثر من خمسين مترا ، وتختلف
الرقصات الاهتزازية في عدد مراتها باختلاف المسافة ، فلكل عدد من الاهتزازات
مسافة معينة .

وأما التعبير عن الجهة التي يقع بها الحقل فيكون بصنع زوايا مع الخط
الشاقولي كزاوية الطريق مع الشمس ، فتحفظ الشغالات هذه الزاوية ، وتنطلق
الى الحقل فرادى ، ولا تضل عنه أبدا .

وهذا كله اذا كان الجو صاحيا ، فاذا كان الجو غائما ، فان النحلة لا تستطيع
أن تعرف الطريق الى الحقل ، لأنها لا ترى أشعة الشمس ، ومعنى هذا أن النحل
قد يموت في البلاد التي يكسوها السحاب ، ولذلك جعل الله للنحل قدرة على رؤية
اللون فوق البنفسجي الذي نراه نحن أسود ، فالنحل يرى الأشعة فوق البنفسجية ،
التي تخترق السحاب ، وبناء على ذلك يتمكن من معرفة جهة الحقل في حالة
الصحو وفي حالة الغيوم .

أو يمكن لعاقل في الدنيا أن يقول إن كل هذا من قبيل الصدفة العمياء ، أو إنه
أثر من آثار الطبيعة الصماء .

إن الأمر الذي يجزم به كل عاقل على هذه الأرض أن هذا لا يمكن أن يصدر إلا عن طريق قوة مدبرة حكيمة ، ألا وهي قدرة الله .

وعالم الحيوان مليء بالأسرار ، لا يمكننا أن نستقصي كل ما فيه في مثل هذه المباحث اليسيرة التي نهدف من ورائها إلى إبراز أهم مظاهر القدرة الإلهية ولذلك سنكتفي بما أوردناه هنا في هذا المجال .
ولمن أراد التوسع في هذا الموضوع أن يرجع إلى أهم مصادره وهي :

- ١ - العلم يدعو للإيمان كريستي مورسن
- ٢ - الطيور روبرت لمن تعريف د . كامل عطا
- ٣ - الثعابين بيسي م . همت تعريف د . عبد الحليم كامل
- ٤ - الفراشات وأبو دقيق روبرت لمن تعريف د . كامل عطا
- ٥ - الغريب في عالم الحيوان روبرت لمن تعريف د . كامل عطا
- ٦ - المملكة الحيوانية وتطورها أ . ج . كين تعريف د . علي علي مرسي
- ٧ - دنيا الحشرات فرديناندلين تعريف د . أحمد أبو النصر
- ٨ - غريزة أم تقدير ألهي شوقي أبو خليل
- ٩ - النحلة تسبح الله محمد حسن الحمصي .
- ١٠ - هل هو الله أم الطبيعة د . يوسف عز الدين عيسى

وغير ذلك من المراجع الكثيرة التي لاسبيل لحصرها .

الادلة على وجود الله ٥ - عالم الإنسان

لقد سردنا في الفقرات الماضية بعض مظاهر القدرة الإلهية في عالم الحيوان ، مما لا يملك الإنسان إزاءه إلا أن يعترف بعظيم هذه القدرة ، ودقة تصميمها ، وبإلغ حكمةا وتقدرها ، ولولا خشية الإسهاب لذكرنا من عجب صنع الله في هذا العالم ما يذهل له العقل البشري . . إلا أننا سنضطر لترك عالم الحيوان إلى عالم الإنسان ، الذي يعتبر - بلا ريبه أوشك - يعتبر ذروة الإعجاز الإلهي فيما أدركه الإنسان واضطلع عليه ، ولذلك جعله الله دليلاً ناطقاً على قدرته ووجوده ووحدانيته فقال : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ **الذاريات/٢٠** ﴿ وَفِي

أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿الذاريات/٢١﴾

وقال : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتَنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

﴿فصلت/٥٣﴾

عملية تكوين الجنين :

ولنبدا بعملية تكوين الجنين ، تلك العملية المذهلة التي يقف العلم عاجزاً عن إدراك حقيقتها ، ومعرفة القوة التي تسييرها وتدفعها إلى الهدف المحدد المرسوم إلا إذا حنى رأسه واعترف بعظم الله ووجوده وقدرته .

إن العملية تبدأ بانجذاب الخلية الذكرية ، وهي الحيوان المنوي للذكر - نحو الخلية الأنثوية - وهي بويضة الأنثى والخلية الملقحة - وبعد التلقيح ، تبدأ هذه الخلية الملقحة بالانقسام ، فتصير الخلية خليتين ، ثم تصير الخليتان أربع خلايا ، ولا تزال الخلايا تتضاعف عن طريق الانقسام إلى أن تصل إلى حد معين ، ويصبح مجموع الخلايا على شكل ثمرة التوت ، ثم يحدث تجويف داخل هذه الكتلة ، فتصبح على هيئة كرة جوفاء ، جدارها مكون من طبقة واحدة من الخلايا ، ثم ينغمد نصف الكرة داخل نصفها الآخر ، فتصبح ذات جدارين من

الخلايا ، ثم تتكون بين الطبقتين طبقة ثالثة ، وتستمر الخلايا في الانقسام ، وهنا يبدأ عمل مذهب جديد ألا وهو أنه يتكون من كل طبقة من هذه الطبقات الثلاث نوع معين من الأعضاء .

فيتكون من الطبقة الخارجية الجلد ، والجهاز الهضمي ، وبعض الأجزاء الأخرى ، ويتكون من الطبقة الوسطى العضلات والعظام ، ويتكون من الطبقة الداخلية بعض أجزاء الجهاز الهضمي .

ويستمر انقسام الخلايا حتى يتم تكوين الجنين داخل الرحم في الحيوانات الثديية ، أو داخل البيضة في الحيوانات التي تبيض ، وعند اكتمال تكوين الجنين يلفظه الرحم إلى خارج الجسم في عملية الولادة ، أو يكسر البيضة ويخرج منها

كيف تحدث هذه الأمور ، وما هي القوة التي دفعت الخلية الأولى ومن ثم جميع الخلايا الناتجة عنها وتدفعها دوماً إلى نتيجة واحدة ، وبطريقة واحدة ، دون خلل أو انحراف . . ؟ لا بد أن تكون قدرة بالغة لها من الدقة والإحكام في إيجاد هذا الخلق المعقد ما ليس لأي قوة على وجه الأرض إنها قدرة الله .

وليس هذا الجنين الناتج عن هذه الخلية الملقحة بأعجب من وجود الخلية نفسها ، وبطريقة تجعل الإنسان أشد إعجاباً وذهولاً .

إن الخلية الأساسية التي تكون منها الجنين ، وجميع الخلايا التي تتكون منها أجسامنا ، دائمة الانقسام ، كما عرفنا ، وكل خلية من هذه الخلايا تتكون أساساً من مادة عجيبة نطلق عليها اسم البروتوبلازم ، وتوجد بداخل كل خلية محتويات عديدة ذات وظائف محددة ، ومن هذه المحتويات أجسام دقيقة تحمل عوامل وراثية هي المسمات بـ " الكروموزومات " وعدد هذه الكروموزومات ثابت في خلايا كل نوع من أنواع الحيوانات والنباتات المختلفة ، فعددها في خلايا الأرنب مثلاً يختلف عن عددها في خلايا الفيل ، أو الأسد ، أو الحصان ، فهي التي تميز الحيوان عن الحيوان الآخر .

وخلية الإنسان تحتوي على ستة وأربعين كروموسوما ،وعندما تنقسم الخلية الإنسانية فإن الخلايا الجديدة الناتجة عنها يجب أن تحتوي على نفس العدد من الكروموسومات وإلا لما أصبح الإنسان إنسانا ، وهذا الانقسام دائم ، أثناء الليل وأطراف النهار، في النوم واليقظة ، وفي كل ظرف وحال ، دون أن يكون للإنسان دخل فيه ، أو سيطرة عليه ، وكل خلية جديدة تحتوي على نفس العدد المذكور من الكروموسومات ، سوى نوعين من الخلايا ، وهما الخلايا التناسلية ، أي الحيوان المنوي عند الرجل والبويضة عند المرأة ، فعندما تنقسم خلايا الأنسجة لتكوين هذه الخلايا التناسلية فإنها تنتج خلايا لا تحتوي على ستة وأربعين كروموسوما ، وإنما تحتوي على ثلاثة وعشرين كروموسوما ، فقط

ما السر في هذا ؟ ولماذا يحدث هذا الانقسام الغريب ؟ لماذا يختزل عدد الكروموسومات في البويضة والحيوان المنوي ؟

إنها الحكمة البالغة التي اقتضتها يد القدرة الإلهية وذلك أنه لو كان عدد الكروموسومات ، في الخلية التناسلية كغيره من الخلايا - أي ستة وأربعين كروموسوما ، لأصبح عدد الكروموسومات في الخلية الملقحة اثنين وتسعين كروموسوما ، لأنه باندماج الخليتين لتكوين الخلية الملقحة يتضاعف العدد ، ولكن معنى هذا - بناء على ما ذكرناه - أن يصبح الجنين جنين حيوان آخر غير الإنسان تحتوي خليته على اثنين وتسعين كروموسوما . ولا نقرض الإنسان من أول جنين يتكون في رحم الأنثى ، ولذلك اقتضت الحكمة البالغة أن يكون عدد الكروموسومات في الخلية التناسلية ثلاثة وعشرين كروموسوما فإذا تلقحت البويضة بالحيوان المنوي ، وتكونت الخلية الملقحة ، نتجت الخلية الجديدة التي تحتوي على ستة وأربعين كروموسوما ، وهي خلية الإنسان ، وبدأن بالانقسام من جديد ، وهكذا . إلى أن تتم الدورة ، ويولد الإنسان الجديد .

إنه ترتيب دقيق ، وتنظيم محكم ، يذهل له العقل البشري . . ولولاه

لا نقرض النوع الإنساني بمجرد تكوين الجنين الأول . . أو يجوز لعاقل بعد هذا أن ينسب هذه الأمور البالغة في الدقة والتعقيد لصدفة أو اتفاق " اللهم إنا نشهدك على أنها أعظم الآيات الدالة على وجودك وقدرتك . . " ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ

سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿ الْمُؤْمِنُونَ/١٢ ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفْسَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ

﴿ الْمُؤْمِنُونَ/١٣ ﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّفُوسَ عُلُقَةً فَخَلَقْنَا الْعُلُقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ

عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

﴿ الْمُؤْمِنُونَ/١٤ ﴾

حماية الجنين وغذاؤه :

وبعد أن يكتمل تكون الإنسان إجمالاً في الشهرين الأولين ، يدخل مرحلة الجنين الكامل ، حيث تتكامل أعضاؤه وتأخذ شكلها النهائي .
ثم يبدأ الشهر الثالث لينمو نمواً جديداً ، حيث تتكون المشيمة والسائل الأمينوسي الذي يحيط بالجنين من كل جهة ليحمي الجنين من الرضوض ويسهل حركته ليتخذ الوضع الطبيعي عند الولادة ، كما أنه يوسع فوهة عنق الرحم . .
وأما المشيمة فإنها المؤسسة المسؤولة عن حياة الجنين مباشرة وهو في بطن أمه ، فهي التي تمتص الدم من رحم الأم وتدفعه إلى الجنين .

وهي التي تهضم الطعام بحيث تجعله بسيطاً مستساغاً ، ثم تبعث به إلى الجنين حتى لا يتضايق منه .

وهي التي تدخل الغازات والماء ، والأملاح المعدنية إلى الجنين ولولاها لما عاش لحظة واحدة .

وإذا مر دسم ثقيل بعثت بخمائرها حتى تحليه إلى صابون دسمي ، يمكن إمراره إلى دم الجنين ، ثم تفكيكه بعد ذلك حتى يستفيد منه الجنين .

كما أن السكر إذا فاض عن الحاجة انقلبت خلايا المشيمة إلى مستودعات

تخزين لمولد السكر حتى يحين الوقت المناسب الذي يحتاج فيه الجنين للسكر

وأما الخلايا الأمامية للمشيمة فإنها تفرز الهرمونات التي تكفل للجنين أن يتابع حياته ، كما تحافظ على الاستقرار والاتزان في أخلاط جسم الجنين ومفرزاته ، فمن الذي لقنها كل هذه الدروس ؟

ومن الذي خطط لها هذا المنهج الكامل ، لتقوم بدورها في الحفاظ على حياة الجنين وعلى أكمل وجه ؟

ثم بعد ذلك نرى أن الجنين قد أحيط بثلاثة أغشية وهي الساقط ، والكريوني ، والأمينوسي ، مما يجعل الجنين في حماية من جلد البطن وعضلاته والرضوض ، التي يمكن أن يتلقاها من الرحم .

أوليس في هذا ما يشير إليه قول الله تعالى ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا

مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ﴿الزمر/ ٦﴾

أليس في هذا ما يلفت نظر الإنسان إلى أن هذا الكلام إنما هو كلام خالق الإنسان ، لأنه لم يكن في ذلك الوقت الذي نزل فيه القرآن من يعرف هذه الحقائق العلمية عن الجنين ؟

أو ليس في هذا ما يدعو كل عالم منصف في الحياة لأن يعترف بوجود الله ، ويحني رأسه أمام عظمته ، ويدعن للدين الحق ؟

أو ليس في هذا ما يجعل الإنسان المؤمن على ثقة من تفسير الدين لمظاهر الكون والحياة ، بدلا من أن يتيه في ظلام النظريات الخاطئة المبنية على الظن والتخمين والرجم بالغيب ؟

بلى . . إنه إذعان العلم للدين ، ومطابقته له .

خلايا المخ لا تنقسم :

عرفنا في الفقرة الماضية أن الخلية دائمة الانقسام ، لنمو الأجسام أو تعويض ما مات من الخلايا ، وأن كل خلية جديدة تحتوي على نفس العدد من الكروموسومات المميزة للحيوان عن غيره من الحيوانات الأخرى سوى نوعين من الخلايا وهي الخلايا التناسلية ، فإنها عند تكوينها وانقسامها تحتوي على نصف العدد من الكروموسومات ، ليعود العدد بعد التلقيح إلى وضعه الأصلي . . وإلا لا نقرض الإنسان .

ولكن . . هل هذا الانقسام الدائم في الخلية يشمل جميع الخلايا في جسم الإنسان ؟ أم أن هذا الانقسام يشمل بعض خلايا الجسم ، وأما بعضها الآخر فثابت لا يتغير ولا ينقسم . . ؟

والجواب على هذا أن هذا انقسام يقع في جميع خلايا الجسم سوى خلية واحدة ، وهي الخلية العصبية التي يتكون منها المخ والجهاز العصبي ، لأنه لو انقسمت هذه الخلية لحدثت كارثة مروعة في الحياة ، وذلك لأن خلايا المخ في هذه الحالة سوف لا تستطيع الاحتفاظ بشخصية الإنسان ، كما أنه ستتلاشى جميع المعلومات التي تعيها الذاكرة في خلال فترة قليلة ، وذلك بظهور الخلايا الجديدة التي لا تعي شيئاً ، وموت الخلايا الأخرى .

من أجل هذا اقتضت حكمة الله أن تبقى خلايا المخ ثابتة عند الإنسان أو أي حيوان آخر، منذ ولادته إلى أن يموت، لا تزيد خلية واحدة ، وبناء على ذلك يتمكن الإنسان من الاحتفاظ بالمعلومات منذ حياته الأولى إلى أن يموت .

عوامل الوراثة :

وهذه الخلايا تحتوي كما ذكرنا على الكروموزومات ، والكروموزومية تكون

النوية المعتمدة التي تحتوي على الجينة ، والجينات هي العامل الرئيسي فيما يكون عليه كل كائن حي ، إنسانا كان أو غيره ، فهي المسؤولة عن المخلوقات البشرية التي على سطح الأرض ، من حيث خصائصها الفردية ، وأحوالها النفسية ، وألوانها ، وأجناسها ، وهي صغيرة جدا ، تبلغ من الصغر والدقة بحيث لو أنها جمعت كلها ووضعت في مكان واحد لكان حجمها أقل من ١ سم ٣ ، إذ يتسع هذا الحجم الصغير للصفات الفردية لبليونين من البشر .

هذه الجينة هي التي تقرر هل الطفل سيشبه أمه أم أباه ، وهذه الجينة هي التي تنقل إليه طبائع وخصائص وألوان وصفات أجدادنا وأسلافنا ، هي التي تحمل إلى الطفل عصبية أبيه أو حلمه ، وهي تحمل له سرعة انفعاله ، أو برودة طبعه ، وهي التي تحمل إلى النمر ضراوة أصوله ، وإلى الفراشة ألوان أبويها ، وبكل دقة وإتقان بحيث ترى البقعة الصفراء أو الحمراء في مثل المكان الذي كانت فيه على الفراشة الأصلية .

إنه كتاب سري مكتوم ، وتعليمات دقيقة معقدة ، توحىها هذه الجينات للخلايا ، والخلايا تطيعها طاعة الجند للرئيس ، فلا تنمو إلا على تعليماتها .

ولو أردنا أن نكتب خصائص بليونين من البشر، وصفاتهم ، وطبائعهم ، وألوانهم ، لما وسعنا ملايين المجلدات ، إلا أن قدرة الله أودعت كل هذا في جينات بليونين من البشر ، في مكان لا يزيد حجمه عن ١ سم ٣ ، الأمر الذي حير العلماء الذين لم يعرفوا عنه حتى الآن إلا بعض التصورات الساذجة .

النظام العصبي :

ولنترك الكلام على الخلية ، فالكلام عيها يطول ، ولننتقل إلى النظر في نظام آخر من نظم جسمنا الكثيرة ، وليكن النظام العصبي .

إن هذا النظام يشبه أسلاك الهاتف في نقل الأخبار إلى المخ ، فالمخ هو المركز الرئيسي لهذا النظام .

فيوجد في المخ ١٤ مليار خلية عصبية ، يخرج من كل خلية سلك عصبي ، بحيث تنتشر هذه الأسلاك في جميع أنحاء الجسم ، وتسمى بـ "الأنسجة العصبية" وعلى هذه الأنسجة يجري نظام استقبال وإرسال الأخبار ، بسرعة سبعين ميلا في الساعة .

وهذه الخلايا تعمل كلها دفعة واحدة من أجل المحافظة على سلامة الإنسان ، وبواسطة هذه الأنسجة نتذوق ، ونسمع ، ونبصر ، فيوجد على اللسان ثلاثة آلاف من الشعيرات المتذوقة ، لكل منها سلك عصبي خاص متصل بالمخ ، وبواسطة هذه الشعيرات نحس بالطعوم المختلفة ، وتوجد في الأذن عشرة آلاف خلية سمعية ، ومن خلال نظام معقد يسري من هذه الخلايا ، يسمع فحنا ، وفي كل عين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء ، تقوم بمهمة إرسال الصور إلى المخ ، وهناك شبكة من الأنسجة الحسية على امتداد جلدنا ، فإذا قربنا إلى الجلد شيئاً حاراً ، فإن ثلاثين ألفاً من الخلايا الملتقطة للحرارة تحس بهذه العملية وترسلها فوراً إلى المخ ، وإذا قربنا إلى الجلد شيئاً بارداً ، فإن ربع مليون من الخلايا التي تلتقط الأشياء الباردة ، تحس به ، وعندئذ يمتلئ المخ بآثرها ، ويرتعد الجسم ، وتتسع الشرايين الجلدية ، فيسرع الدم بكمية كبيرة إليها ويزودها بالحرارة ، وإذا أحست هذه الخلايا بحرارة شديدة ، فإن مخابرات الحرارة ترسلها إلى الدماغ ، وحينئذ تفرز ثلاثة ملايين من الغدد العرقية عرقاً بارداً إلى خارج الجسم .

ولقد أراد العالم جودسون هريك أن يعطي تشبيهاً للدماغ والجهاز العصبي فقال في محاضرة ألقاها في معهد التاريخ بنيويورك في ديسمبر عام ١٩٥٧ قال : " لو أننا جمعنا كل أجهزة العالم من التلفون ، والتلغراف ، والرادار ، والتلفزيون ، ثم حاولنا أن نصغر هذا المقدار الهائل من الأجهزة المعقدة حتى استطعنا وبمجهود جبار

أن نوصلها إلى مثل حجم الدماغ ، فإنها لا تبلغ في تعقيدها مثل الدماغ " .

هذا وإن الخلايا العصبية لا تعمل بشكل مفرد ، بل تتعاون مع باقي الخلايا ، ولقد وجد أن بعض الخلايا متصل بما يقرب من ١٨٠٠ خلية أخرى .

ومعنى هذا أننا لا نستطيع أن نجد رقما رياضيا يعطينا عدد العلاقات التي تنشأ بين الخلايا العصبية ، وذلك بضرب ١٤ ألف مليون بـ ١٨٠٠

والنظام العصبي يشتمل على عدة فروع ، منها " الفرع المتحرك ذاتيا " ويقوم بأعمال تحدث ذاتيا في الجسم ، كعملية الهضم والتنفس وحركات القلب ، ويندرج تحت هذا الفرع نظامان :

أحدهما : النظام الخالق للحركة ، والآخر : هو المانع لها . وهذا الأخير يقوم بعملية المقاومة والدفاع ، ولو ترك الأمر للنظام الأول لازدادت حركة القلب زيادة يترتب عليها موت صاحبه ، ولو سيطر النظام الثاني لتوقفت حركة القلب توقفا تاما ، وأقسام هذين النظامين تباشرا أعمالها في دقة فائقة وتوازن تام ، ولكن هناك حالات يزداد فيها نشاط أحد النظامين ، فالنظام الأول يتغلب عند الضغط واحتياج القلب إلى قوة مسعفة ، وعندئذ تزيد سرعة عمليات القلب والرئة ، والنظام الثاني يتغلب عند النوم فيسود السكون جميع الحركات الجسمية .

على أن الإنسان في كل هذه الحالات لا يدري شيئا ، ولا يعرف شيئا ، فكيف تعمل هذه الأجهزة ، وبأي إرادة تتحرك ، إنها إرادة الخالق الأزلي

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ ^(١) ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ^(٢)

هذا وإن الكلام على الجملة العصبية أو الجهاز العصبي يستغرق منا لو أردنا أن نبحث فيه عن مثل هذه الأمور المدهشة - يستغرق منا عشرات بل مئات وآلاف

(١) السجدة

(٢) المؤمنون / ٢٣

الصفحات ، وتكفيها هذه القيسات عن آلاف القيسات التي حار العلماء والأطباء في وصفها والبحث عن حقيقتها (١)

إلا أنه لا مانع من الإشارة إلى مستودع الأخبار التي تنقلها الجملة العصبية صباح مساء من جميع أطراف الجسم إلى الدماغ ، ليحللها ، ويرسم أفضل الخطط في معالجتها ، لكن الأمر لا ينتهي عند هذا الحد ، بل ترسل كل المعلومات التي يطلع عليها الإنسان إلى مستودع الأخبار ألا وهو الذاكرة . التي تحفظ كل الأخبار التي يطلع عليها الإنسان في حياته ، من صور ، وأصوات ، وطعوم ، وروائح ، وحرارة ، وبرودة ، وصيف ، وشتاء ، وحرب ، وسلم وقرآن ، وحديث ، وفقه ، وتفسير وذكريات ، وآمال ، وآلام ، وشعر ونثر ، وغناء ، وموسيقى ، وصراخ ، وضجيج وغير ذلك من المعلومات التي لا نهاية لها ، والتي قال العلماء عنها أنها تحتوي من الأخبار على ما يزيد عن ٩٠ مليون مجلد . . ؟ ! وبحيث يتمكن الإنسان في أي لحظة من استحضار الشريط المسجل الذي يريده من مخزن هذه الذاكرة ، ويراجعه وكأنه فلم سينمائي يمر أمامه ، مهما طال عليه الزمن ، أو أتى عليه من الظروف . .

فما هي الذاكرة ؟

وأين توجد ؟

وكيف يعمل العقل ؟

وكيف يتم التفكير ؟

وما هي الإرادة ؟

وأين يمكن الشعور واللاشعور ؟

وكيف يحصل فهم المسموعات والمبصرات ؟

وكيف تقلب الصورة إلى معاني ؟

(١) وانظر للمزيد من البحث في هذا الموضوع الطب محراب الإيمان ١ / ٩٤ - ١٩٠

وكيف تختزن المعلومات ؟
وكيف تستحضر ؟
وكيف يحصل الإحساس بالسعادة ؟
وكيف يحصل الإحساس بالبؤس والألم ؟

ولماذا تبقى معاني السعادة مختزنة بالذاكرة ، تتكرر بتكرر التخيل ، أو إعادة الشريط ؟

وكيف تبقى معاني الشقاء والألم مختزنة بالذاكرة نتألم كلما ذكرناها ، وربما تحولت الذكرى إلى آلام عضوية ؟

إنها سر الله في هذا الإنسان الذي يعتبر كما ذكرت قمة الإعجاز الإلهي فيما
ظهر للإنسان ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ﴿الذاريات/ ٢١﴾

الكلية والتوازن المائي في الجسم :

إن البدن يحتاج يوميا من ٢ _ ٣ لترات من الماء ، وقد تزيد هذه الكمية بزيادة العرق وفقدان السوائل .

ومعنى هذا أن الجسم في عملية مستمرة يتم بها طرح السوائل وطلبها ، وبناء على ذلك كان لابد من نظم لهذه العملية ، وإلا انقلب الأمر إلى فوضى ، وهذا المنظم هو الكلية التي تقوم بهذا العمل الهام في حياة الإنسان إلى جانب تصفية الدم من الفضلات والشوائب ، وذلك عن طريق مرور الدم عبر أوعية مجهرية دقيقة في الكلية ، حيث تتم هذه العملية .

فخلال كل ٢٤ ساعة يمر ١٨٠ ليتر من الدم إلى الكلية ، حيث يرشح ويعاد امتصاصه كاملا ، إلا مقداره ١,٥ ليتر منه فقط ، وهذه هي المادة البولية التي يتم طرحها خارج البدن .

أي أن الدم يتصفى كل يوم ٣٦ مرة ، وذلك باعتبار أن حجم الدم ٥ لترات في جسم الإنسان .

وأما كيف يتم التوازن في أمر الماء يحتاجه الجسم ، بحيث لا يزيد ولا ينقص فذلك يتم باستشعار البدن بزيادة الماء مثلاً من خلال الأوعية الدموية ، حيث يتحسس جدار الأوعية بهذه الزيادة ، فترسل إشارات الاستغاثة ، إلى الدماغ الذي يرسل الموضوع إلى الغدة النخامية ، التي تقوم فوراً بإصدار الأوامر إلى الهرمون المضاد لإدرار بمنطقة الأنابيب الكلوية البعيدة ، حيث يشبه " بوابات السد " فزيادة الهرمون يعني التقليل من طرح الماء ، وزيادة احتفاظ الجسم به ونقص الهرمون يعني زيادة طرح الماء كما هو الحال في مثالنا ، وبناء على ذلك تفتح بوابات السد ، ويزداد إدرار البول ، ويتخلص البدن من الماء الفائض في الجسد ، ومن الشوائب المتعلقة بالدم بأن واحد ، وبذلك يتم التوازن بين الماء المدخل إلى الجسم والخارج منه لتدوم الحياة .

وإذا ما فقد الإنسان أحد كليتيه لظرف من الظروف ، فمعنى هذا أن جسمه أصبح معرضاً للخطر ، إذ لا تتمكن الكلية الواحدة من القيام بهذه المهمة الجسمية التي تتوقف عليها الحياة ، إلا أن قدرة الله تعالى تتجلى ظاهرة في هذه الحالة ناطقة بدوام العناية بالإنسان ، وذلك بتضخم حجم الكلية الأخرى الباقية في الجسم بحيث تستطيع أن تقوم بعمل الكليتين معاً ، والإنسان لا يدري عما يجري في جسمه ، ولا كيف يجري ، إلا أنه لابد له بعد أن يعلم هذا أن يوقن أن مثل هذه الأمور يستحيل أن تكون نتيجة لعمل الصدفة العمياء ، ولابد من وجود القدرة المدبرة ألا وهي قدرة الله .

الكبد مستودع الأمانات :

ربما تسللت بعض العناصر الضارة عبر غشاء الأمعاء ، وربما فاضت بعض

المواد الغذائية عن حاجة البدن الآن ، إلا أنه ربما احتاج إليها في المستقبل ، ولذلك اقتضت العناية الإلهية وجود جهاز في الجسد يراقب ليل نهار ، لا يكل ولا يمل ، يراقب أي عنصر مشبوه ليلقي عليه القبض ، ويراقب الفائض من بعض المواد الغذائية فيدخره لوقت الحاجة ، ألا وهو الكبد .

والكبد أكبر غدة في البدن ، يزن حوالي ١,٥ كغ ، وبنائوه الخلوي متجانس ، إلا أنه مع هذا يقوم بعشرات الوظائف التي تتوقف عليها حياة الإنسان .

فإنه يقوم بخزن الدسم ، والسكريات ، والبروتينات ، والفيتامينات ، وبطرق فنية ، ففي السكر مثلاً يخزنه بعد أن يكتفه ويجففه بطرح الماء منه ، فإذا ما احتاج البدن إلى السكر في حالة من الحالات قام الكبد فوراً بطرح كمية مناسبة من السكر المدخر لمثل هذه الحالة ، ولكن بعد تمييعها وإعادتها على الحالة التي كانت عليها قبل الادخار . . ؟

وفي نفس الوقت يقوم الكبد بتصنيع المادة المخثرة للدم كخميرة البروتومبين والمادة الخاصة بتمييع الدم (وهي مادة الهيبارين ، وبذلك يضمن التوازن في الدم فلا يتخثر ولا يتميع) .

وفي حالة الجنينية يقوم الكبد بإنتاج الكريات الحمر .

وهناك إنتاج مهم جداً ألا وهو إنتاج " البولة " ، فلكبد يمد الدم بالبروتينات ، ومع تحطيم البروتينات ينطلق غاز النشادر ، وفي هذه الحالة يقوم الكبد بدمجه بغاز الفحم منتجاً للبولة التي يتم إرسالها إلى الكلية لتطرحها بدورها إلى خارج الجسم ، ولولا هذه العملية لمات الإنسان خلال ساعات .

خلايا متجانسة ، لاتعي ، ولا تعقل تقوم بأهم الأعمال التي يذهل لها الإنسان ، تقتل العناصر السامة وتدخر المواد الغذائية ، وتمد البدن بها في حالة

الحاجة ، وتنتج الكريات الحمراء ، والمادة البولية . وغير ذلك من الوظائف العجيبة الغريبة ، ألا تدل هذه الأمور على دقة الخالق الحكيم ، وعظيم صنعه ..؟ خلايا مشابهة متجانسة لا تعي ولا تعقل تقوم بما يعجز عنه أكبر عباقرة الحياة ؟ ..

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ ﴾ لقمان/ ١١ ﴿

خطوط الدفاع في الجسم :

لا بد لللامة حتى تحتفظ كيائها من جيش يسهر على حدودها ويدافع عنها ، ويضحي من أجل صيانتها ، إلا أن الجيوش ليست كلها انتحارية ، وليست على الدوام في حالة استنفار ، إلا أن جيوش الجسم الإنساني انتحارية من الدرجة الأولى كما أنها دائمة الاستنفار .

فالكريات البيضاء في الدم هي الجيوش الانتحارية الساهرة على حفظ كيان الإنسان ، فإذا مادوهم الجسم من قبل أي جرثوم تسابقت هذه الكريات وبإعداد هائلة إلى الاشتباك الفوري معه ، وبدون إنذار مسبق ، وتساقطت منها الضحايا في ساحة المعركة مشكلة القيع الذي نراه حول الجرح البسيط في غالب الأحيان فإن انتصرت على العدو فيها ونعمت وإلا ، بأن كان العدد عنيفا وقويا وعجزت هذه الكريات عن مواجهته ، وتهدم خط الدفاع الأول الذي كانت تشكله حول الجرح أو المنفذ الذي دخل منه الجرثوم ، فإنه في هذه الحالة وبشكل فوري تتشكل العقد الليمفاوية ، وهي القلاع الحصينة التي تشكل خط الدفاع الثاني ، وهي مصنع لا ينضب للجنود ، والأسلحة ، والفرق الفدائية ، وهي التي تعلن النفير العام في البدن فترتفع الحرارة ، ويسرع القلب ، وينخفض النشاط العام في الجسم ، وهي الانتفاخات التي نحس بها تحت الإبط أو الحنك أو في أصل الفخذ عند حدوث الالتهابات .

فإذا استطاعت التغلب على العدو بما لديها من هذه الطاقات الهائلة فيها ونعمت وإلا ، بأن فشلت في الدماغ ، وتجاوز العدو هذا الخط الثاني ، وصار الأمر جدا ، والخطر محدقا ، ففي هذه الحالة تعلن التعبئة العامة في الجسم بأكمله ، وتبدأ الحرب العامة في كل مركز وفي كل مكان ، مدعمة بمراكز الدفاع الرئيسية الممثلة بالطحال ، والكبد ، والنسيج الشبكي الموزع في كافة أنحاء الجسم .

وبذلك يدخل الجسد في أعنف مرحلة من مراحل المقاومة التي تنتهي أما بانتصاره ، وأما بانتصار العدو مما قد يؤدي بحياته .

هل فكر الإنسان كيف تتم هذه الأمور ، ومن الذي علم الكرية البيضاء التي لا ترى بالمجهر أن تقوم بأعمال الدورية والقتال والانتحار ، ومن الذي ركب الجسد على هذا النحو النظامي في الدفاع . . ؟

إنها قدرة الله . . ؟ وآيته فينا نحن معاصر البشر . . ﴿ وفي أنفسكم أفلا ﴾

﴿ البصرون ﴾ ﴿ الذاريات/ ٢١ ﴾

العين :

قد عرفنا أنه يوجد في العين مائة وثلاثون مليوناً من الخلايا الملتقطة للضوء تقوم بمهمة إرسال الصور إلى المخ ، ولكن هل هذا كل ما في العين من العجائب ؟ والجواب على هذا توجزه الجملة الآتية .

لقد كان الطبيب منذ عهد قريب يتخصص بالعين ، على أنها جزء من الجسد ، له تخصص واحد ، إلا أن تقدم العلم أثبت أن دائرة العين أكبر من هذا بكثير ، فنشأت في الجامعات عدة تخصصات في دراستها ، ثم تبين لدى المفكرين والباحثين من الأطباء ، أن عقل الإنسان قاصر عن هذا أيضا ، ولذلك ضيق دائرة التخصص إلى أن أصبح الطبيب يتخصص بطبقة من طبقاتها ليتمكن نوعا ما

من الإحاطة بما فيها من العجائب ، ولا ندري ماذا يحمله العلم لنا في طياته في المستقبل القريب .

وأظن أننا من خلال هذه الجمل نستطيع أن ندرك ولو على سبيل الإجمال ماذا يوجد في العين من النظم المعقدة والدقيقة حتى احتاجت لمثل هذا التوسع الهائل في دراستها .

إن التركيب الأساسي للعين يتشابه في جميع الثدييات وغيرها إجمالاً وهو تركيب عجيب فالعين عدسة تستقبل الضوء ، وفتحه ينفذ الضوء من خلالها ليخترق العدسة ، وتلك الفتحة التي ينفذ منها الضوء ، في العين تتسع تلقائياً في الضوء الخافت ، وتضيق تلقائياً في الضوء الشديد . والحكمة في ذلك واضحة غاية الوضوح ، لأنه في حالة الضوء الخافت تحتاج عملية الإبصار إلى كمية كبيرة من الضوء أما في حالة الضوء الشديد فتكفي كمية قليلة منه لكي تتضح الأشياء المرئية ، والعين ترى الأشياء في الضوء الخافت والشديد على السواء ، بينما لم يتمكن الإنسان حتى الآن من اختراع آلة تصوير يمكنها النقاط الصور في مثل هذا الضوء الخافت الذي تبصر العين من خلاله المرئيات بل إن النمل قادر على رؤية الأشعة فوق البنفسجية ، ولذلك فهو يرى مهما كانت السحب كثيفة ومهما حجبت أشعة الشمس ، كما أن البوم قادر على رؤية الأشعة تحت الحمراء ، ولذلك فهو يرى الفأر في الظلام الدامس .

قلنا أن العدسة تستقبل الشعاع من خلال فتحتها ، فإذا ما نفذ منها وقع على الشبكية عند قاع العين ، والشبكية تتكون من تسع طبقات مختلفة ، لا يزيد مجموعها عن سمك ورقة رقيقة .

والطبقة التي في أقصى قاع العين تتكون من أعواد ومخروطات ، أما وظيفة المخروطات فهي رؤية التفاصيل الدقيقة واللون ، ووظيفة الأعواد هي الرؤية في الضوء الخافت ، ويقال أن عدد الأعواد ثلاثون مليوناً ، وعدد المخروطات ثلاثة

ملايين ، وقد نظمت هذه كلها في تناسب محكم بعضها بالنسبة إلى بعض وبالنسبة إلى العدسات ، ولكن العجب أنها تدبر ظهرها للعدسات ، وتنظر نحو الداخل لا نحو الخارج ، وإذا استطاع الإنسان أن ينظر من خلال العدسات ، فإنه سيرى صور الأشياء مقلوبة الوضع ، وسيرى الجانب الأيمن في الأيسر ، والأيسر في الأيمن ، وهذا أمر يؤدي إلى الارتباك لأنه يؤدي إلى سوء التقدير في الأجسام المرئية ، ولذلك كان لا بد من عملية أخرى ليكون الأبصار صحيحا وسليما ، وذلك عن طريق ملايين الخيوط العصبية المكونة للعصب البصري الذي ينقل بدوره الصورة إلى المخ الذي يعيدها إلى وضعها الطبيعي السليم ، لتتم الرؤية السليمة .

إن كل هذه الأمور التي ذكرناها عن العين من العدسات والمخروطات ، والعيان ، والأعصاب وغيرها ، لابد أن تكون قد حدثت في وقت واحد ، لأنه قبل أن تكمل كل واحدة منها كان الأبصار مستحيلا (١) .

فكيف استطاعت هذه الأعواد والعصي والأعصاب ، وهي بهذه الأعداد الضخمة الهائلة أن تترتب من تلقاء نفسها ، وأن يأخذ كل واحد منها مكانه المناسب له أو يمكن أن يكون هذا ناتجا عن عمل الطبيعة العمياء ، أو عمل الصدفة الخرقاء ، إن النظام العادي البسيط لا يمكن أن يصدر عن الفوضى ، بل لابد له من منظم فكيف بهذه النظم المعجزة المدهشة الدقيقة .

إن ما ذكرناه عن العين من هذه الأمور الغريبة ، يمكننا أن نذكره عن غيرها من الأجهزة الكثيرة في الجسم الإنساني ، مما لا سبيل إلى الإحاطة به في مثل هذه المباحث الموجزة ، بل إن كل ما كشفه العلم الحديث عن الإنسان في ميدان الطب وغيره من العلوم المتعلقة بهذا المخلوق العجيب الغريب لا تعدو في نسبتها إلى المجهول منه نسبة القطرة إلى البحر العظيم ، بل قال العلماء إن كل العلوم تقدمت

(١) العلم يدعو للإيمان ، كريستي موريش ص ١١٥

تقدما ملحوظا إلا أن العلوم المتعلقة بمعرفة حقيقة الإنسان لم تتقدم إذا ما قيسَتْ بالمجاهيل فيه ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾

﴿ الذاريات/٢٠ ﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿ الذاريات/٢١ ﴾

ومن خلال هذه الجولة السريعة في عالم الفضاء ، والحيوان والنبات ، والإنسان ، ومن خلال ما رأيناه من العجائب والغرائب في الخلية الواحدة ، والجسم المكون من ملايين الخلايا ، من خلال كل هذا الذي رأيناه وقد انتظم انتظاما مدهشا معجزا ، يستحيل أن يكون ناتجا عن الصدفة ، أو عمل الطبيعة العمياء ، من خلال هذا نجد أنفسنا مضطرين ككل العلماء الذين بحثوا في مثل هذه المواضيع بعين التواضع والإنصاف نجد أنفسنا مضطرين إلى الإيمان بالله ، لا عن طريق التقليد للأباء والأجداد ، ولا عن طريق القهر والإكراه ، وإنما عن طريق هذه الأدلة الناطقة التي تشهد بأنه لا إله إلا الله ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ وبنفس الأساليب التي استعملها العقل

الحديث في استدلاله واستنباطه .

لماذا لا نرى الله

سؤال يطرح نفسه على كل إنسان . .

أما الكافر فلا سبيل للخوض معه في هذا الموضوع ، لأن طلب الرؤية مبني على الإيمان بالوجود ، والمفترض به أنه غير مؤمن بوجود الله .

وإنما سبيلنا معه أن نعود إلى ما ذكرناه في المباحث السابقة للاستدلال على وجود الله ، وبالأساليب المناسبة .

وأما المؤمن أو المشكك فسبيلنا معه سهل وبسيط .

إن رؤية الله في الدنيا - وبغض النظر عن إمكانها أو استحالتها للخلاف بين العلماء فيها - إن رؤية الله في الدنيا شيء جميل ، يتمناه كل إنسان ، ولذلك سأل

موسى ربه أن يراه فقال : ﴿ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ ﴿ الأعراف/١٤٣ ﴾

ولكن ليس الخطأ في هذا السؤال أو الأمنية . . لأن تصورات الإنسان الساذجة عن حقيقة الألوهية تطرح عليه هذا السؤال أو الأمنية ، كما يتمنى الإنسان أن يحمل الصخرة العظيمة ، أو أن يزيل الجبل من مكانه ، لكنها أمنية ساذجة . . تدل على بساطة في التفكير . .

إننا آمنّا بالله ، وآمنا بأنه خالق كل شيء ، وليس بمخلوق ، وأنه لا شريك له ولا ولد . . ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ الإخلاص/٣ ﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ

﴿ الإخلاص/٤ ﴾

ومادام الأمر كذلك . . فقبل أن نبحث عن رؤية الله . . يجب علينا أن نبحث عن رؤية الأشياء التي هي من خلق الله . . فإذا استحال علينا رؤية بعض هذه الأشياء مع أنها من خلق الله . . فيجب علينا أن لانترقى إلى البحث في رؤية

خالقها ونحن لما نتمكن من رؤيتها بعد . .

إن جميع طاقات الإنسان وبدون استثناء محدوده . . حتى خياله وفكره ،
فإنها محدودان ، ولهما نطاق لا يتجاوزه .

إننا إذا أخذنا الشوكة الرنانة ، وطرقناها طرقا خفيفا ، أو أخذنا الملقط الذي
نلتقط به النار ، وطرقناه طرقا خفيفا ، فإننا نجد طرفا الشوكة أو الملقط يتحركان
يمينه ويسره محدثان صوتا مترددا متقطعا . . فإذا ما طرقناهما طرقا أشد من
الأول ، فإننا نجد الحركة في الأطراف أسرع ، ونجد أن الصوت قد زاد حدة وخف
تقطيعه ، فإذا ما طرقناهما طرقا عنيفا ، فإننا في هذه الحالة لا نرى حركة
الأطراف وإنما نرى خطا منحنيا أو ثابتا ، كما أننا لا نسمع صوتا متقطعا ، وإنما
نسمع صوتا متواصلا . . لماذا . . ؟

إننا نقطع بأن طرفا الشوكة يتحركان يمينه ويسرة . . ولكننا لم نعد نرى هذه
الحركة المترددة ، كما أننا نقطع بأن الصوت الناتج عن هذه الحركة متقطع ،
ولكننا لم نعد ندرك تقطعه ، وصرنا نسمعه طينيا متواصلا . . لماذا . . والحقيقة
لم تتغير . . ؟

الجواب على هذا يتولاه العلم الذي يقول : إن طاقتنا في الإبصار محدودة ،
كما أن طاقتنا في السمع محدودة ، شأنها في ذلك شأن بقية الحواس .

وذلك إذا زادت الحركة أمام أعيننا عن عدد معين في الثانية ، فإننا لا
نستطيع أن نرى الأشياء المتحركة متحركة ، وإنما نراها ثابتا أو لا نراها مطلقا .

وكذلك إذا زادت الذبذبات الصوتية عن حد معين في الثانية ، فإننا في هذه
الحالة لا نستطيع أن نسمع الصوت متقطعا لعجز السمع عن التمييز في هذه
الحالة ؟

وذلك لأن طاقاتنا في السمع والأبصار محدودة ، فإذا ما خرجت المرئيات عن طاقة البصر ، والمسموعات عن طاقة السمع ، وقعا في الحيرة واضطربا في الإدراك .

ومثال ذلك أيضا إذ جلسنا أمام المروحة الكهربائية وأوصلناها بالتيار الكهربائي ، فإننا في بداية الأمر نرى حركة الأجنحة ، وذلك لخفة الحركة ، ولكننا لا نلبث أن نفقد سيطرتنا على رؤية الأجنحة متميزة ، فإذا ما زادت دوراتها خيل إلينا أن الأجنحة قد اختفت ، وأصبحنا قادرين على رؤية الأشياء من خلفها ، مع أننا نقطع بوجودها وأنها تتحرك وتبعث بالهواء إلينا . . ؟ وربما خيل إلينا أنها تتحرك بحركة معاكسة لحركتها الأولى . . وكل هذا تابع لشدة دورانها وخفته ، وبقوانين معروفة . .

والسبب في هذا عجز بصرنا عن متابعة هذه الحركة السريعة .. ولذلك عجز عن إدراكها مع أنها أجسام صلبة ، صنعها الإنسان بيده ، وحركها بقدرته وطاقته وهي في سمت بصره ، يرى الهواء ينبعث منها ويحرك كل شيء في الغرفة . . إلا أنه عاجز عن رؤيتها . . ؟

فإذا كان الإنسان عاجزا عن رؤية الأشياء التي صنعها بيده ، مع أنها ماثلة أمامه . . أو يمكن له أن يرى الله وهو خالق لكل كائن حي . . ليس من قبيل المادة التي يعرفها البشر ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿الشورى/ ١١﴾
... ؟ أظن أن أي عاقل في الدنيا يؤمن باستحالة هذه الرؤيا مادامنا بهذه الطاقات العاجزة عن إدراك الأجسام الصلبة التي هي بين أيدينا ومن مخترعاتنا . .

إن جميع الأوساط العلمية في العالم - بما في ذلك الملاحظة - آمنوا بالآثير يوما ما الذي افترضوه أنه يملأ الكون . . بل أصل الحياة . . ولكن ما هو الآثير؟ وهل رآه أحد ؟ الجواب لا . . لأن طاقاتنا لم تتأهل بعد لإدراكه . . إذن أليس من العبث أن نسأل لماذا لا نرى الله ؟ ونحن لما نتمكن بعد من رؤية بعض مخلوقاته . . ؟

إن العالم بأسره اليوم يؤمن بالروح . . سوى بعض المعاندين . . وإن النوادي الروحية في العالم الغربي اليوم أكثر من أن تحصى . . ولكن ما هي الروح . . ؟ ما وزنها . . ؟ ما لونها . . ؟ ما طولها . . ؟ وكيف تدخل الجسد في الحياة الجنينية . . ؟ وكيف تخرج منه عند الموت . . ؟ إننا جميعا نؤمن بالروح التي بين جنبينا . . ولكننا جميعا عاجزون عن إدراك حقيقتها أو رؤيتها . . ؟ إنها سر الله في هذه الأرض . . ولقد أجاب القرآن الكريم عن السؤال الذي طرح وسيطرح . . ما هي الروح . . ؟ ولماذا لا نراها . . ؟ بأن طاقاتكم في الحواس والعلوم دون إمكانية الرؤية والإدراك . . والتي تحتاج لطاقات أكبر من طاقاتكم فقال تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

قَلِيلًا ﴾ ﴿ الإسراء/ ٨٥ ﴾ أي وهذا العلم القليل والحواس العاجزة المحدودة لا يمكنكم من رؤية الروح أو معرفة حقيقتها . . ولذلك لا زال العالم بأسره اليوم حائر في أمر الروح وحقيقتها ، وسيبقى لعجز طاقاته وإمكانياته .

فإذا كنا عاجزين عن إدراك الروح التي بين جنبينا ، والتي هي سبب حياتنا . . أي يمكننا أن نرى خالقها . .

أن أي عاقل يدرك مثل هذه الحقائق يقطع باستحالة رؤية الله في هذه الحياة، وبهذه الطاقات والإمكانات ، ومع إيمانه بوجوده .

وهذا الكلام يمكن أن يقال فيها لو كان الله من نوع هذه المخلوقات كالروح مثلا ، فما بالناس إذا عرفنا أن الله يخالف كل مخلوقاته ، فلا يحيط به المكان ، ولا يجري عليه الزمان ، أزلي ، ابدى وليس كالأجسام ، ولا كالأعراض ، ﴿ لَيْسَ

كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ﴿ الشورى/ ١١ ﴾ ﴿ لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴿ الأنعام/ ١٠٣ ﴾

وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . . نؤمن به كما وصف به نفسه من خلال هذه المفاهيم . . إن من يدرك هذه الحقيقة يعلم أين يكمن الخطأ في قولنا : لماذا لا نرى الله . . ؟

إن الإنسان عندما يعجز عن حمل حجر وزنه خمسين كيلو غراما ، فإنه من الخطأ أن يتساءل لماذا لا أستطيع أن أحمل حجرا وزنه ألف كيلو غراما . . أن مثل هذا السؤال خطأ عند كل عاقل في الأرض .

إن الإنسان عندما يخلق أعمى لا يجوز له أن يقول لماذا لا أعرف الألوان ، وعندما يخلق أصم ، لا يجوز له أن يقول : لماذا لا أميز المسموعات .

إن الإنسان الذي يريد أن يرى الروح يجب أن يتأهل أو لا بطاقات وإمكانات وحواس تمكنه من هذه المشاهدة .

وإن الذي يريد أن يرى الله يجب عليه أيضا أن يتأهل بمثل هذا . . ولذلك لما كان من كرامة المؤمن يوم القيامة أن يرى الله . . ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾

﴿ القيامة/ ٢٢ ﴾ إلى ربِّها نَاضِرَةٌ ﴿ القيامة/ ٢٣ ﴾ .

كان من حكمة الله أن يبدل جسده وحواسه ، ويغير طوله وعرضه ، ويعطيه من الطاقات والإمكانات ما يتناسب مع هذا الأمر العظيم وإلا لما كان بإمكانه أن يرى الحواس التي كان عليها في الدنيا .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ الأعراف/ ١٤٣ ﴾

اللهم اجعل صدورنا خزائن أسرارك ، وألسنتنا مفاتيح تمجيدك ،
وجوارحنا خدم طاعتك ، فإنه لا عز إلا بالذل لك ، ولا غنى إلا بالفقر إليك ، ولا
حياة ولا استقرار ولا سعادة إلا بالتزام منهجك ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، آمنا
بك عن قناعة ورضا ، وأسلمنا لك اعترافا بعبوديتنا بين يديك ، وآخر دعوانا
الحمد لله رب العالمين .

المراجع العلمية

- ١ - الإسلام يتحدى الأستاذ وحيد الدين خان
- ٢ - الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة أبو الأعلى المودودي
- ٣ - الله يتجلى في عصر العلم مجموعة من كبار علماء الغرب تعريب د. الدمرداش عبد المجيد سرحان
- ٤ - الثعابين بسي م . همت تعريب د. عبد الحليم كامل
- ٥ - جسم الإنسان كتاب المعرفة
- ٦ - دائرة معارف القرن العشرين محمد فريد وجدي
- ٧ - دنيا الحشرات فردينا ندلين ، تعريب د . أحمد أبو النصر
- ٨ - الدين في مواجهة العلم الأستاذ وحيد الدين خان
- ٩ - الطب محراب الإيمان خالص جلبي كنجو
- ١٠ - الطيور روبرت لمن ، تعريب الدكتور كامل عطا
- ١١ - العلم يدعو للإيمان كرسني مورلسون تعريب د. محمود صالح الفلكي
- ١٢ - الغريب في عالم الحيوان روبرت لمن ، تعريب د . كامل عطا
- ١٣ - غريزة أم تقدير الهي شوقي أبو خليل
- ١٤ - الفراشات وأبو دقيق روبرت لمن ، تعريب د . كامل عطا
- ١٥ - المملكة الحيوانية وتطورها أ. ج. كين ، تعريب د . علي علي مرسى
- ١٦ - النحلة تسبح الله محمد حسن الحمصي
- ١٧ - هل هو الله أم الطبيعة د. يوسف عز الدين موسى
- ١٨ - تاريخ المعالم لجمهرة من المؤرخين الغربيين

فهرس الموضوع

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٣
الرد على دعوى الملاحدة فى أن الالحاد وليد العقل الحديث	٧
الأسباب التى أدت إلى الالحاد	١١
١- موقف الكنيسة	١١
٢- المكتشفات الحديثة	١٥
الرد على شبه الملاحدة فى مكتشفاتهم	١٨
شهادة كبار علماء الكون والحياة بأن المكتشفات الحديثة لم تزدد الإنسان إلا إيماناً	٢٣
اجتماع الدين والعلم منذ فجر الإسلام	٢٦
الدين أعظم دعامة للعلم	٢٩
قضية منكري الدين ودعاويهم	٣٣
نقد دعوى الملاحدة ونقضها	٣٦
قبول مبدأ الإستنتاج	٣٩
توضيح المعيار الرابع	٤٢
استعمال المؤمنين للقانون الرابع فى المعارف	٤٣
نظرية ماييه	٤٥
نظرية دارون	٤٧
رواج نظرية دارون مع أنها قائمة على الإستنتاج	٥٠

٥١		ماجاز لدارون من الإستنتاج يجوز للمؤمنين
٥٢		تعصب الفكر الإلحادي
٥٤		اتجاه الفكر الإلحادي إلى المغالطة
٥٧		نظرية دارون على فرض صحتها لا تؤدي إلى الإلحاد
٦٠		التحكم في تعيين الحقائق غير صحيح
٦٦		طريقة الإستدلال على وجود الله
٧٠		الأدلة على وجود الله
٧٠		١ - من الفضاء
٧٦		٢ - التوازن الدقيق في الأرض وما فيها
٨٣		٣ - عالم النبات
٨٩		٤ - عالم الحيوان
٩٦		الحيوانات المضيئة
٩٧		هجرة الحيوانات
١٠٠		مظاهر مشتركة بين جميع الحيوانات
١٠٠		١ - التكاثر
١٠١		٢ - الغريزة الجنسية
١٠١		٣ - تعويض الاجزاء المفقودة
١٠٢		٤ - الغذاء
١٠٣		٥ - تبادل الشعور
١٠٥		ديدان الفيلاريا
١٠٦		النمل
١١٠		النمل الأبيض
١١١		النحل

١١٦		٥ - عالم الإنسان
١١٦		عملية تكون الجنين
١١٩		حماية الجنين و غذاؤه
١٢١		خلايا المخ لا تنقسم
١٢١		عوامل الوراثة
١٢٢		النظام العصبي
١٢٦		الكليه والتوازن المائي
١٢٧		الكبد مستودع الامانات
١٣٠		العين
١٣٤		لماذا لا نرى الله